شجرة الليمون العجوز

رجاء صالح الجبوري

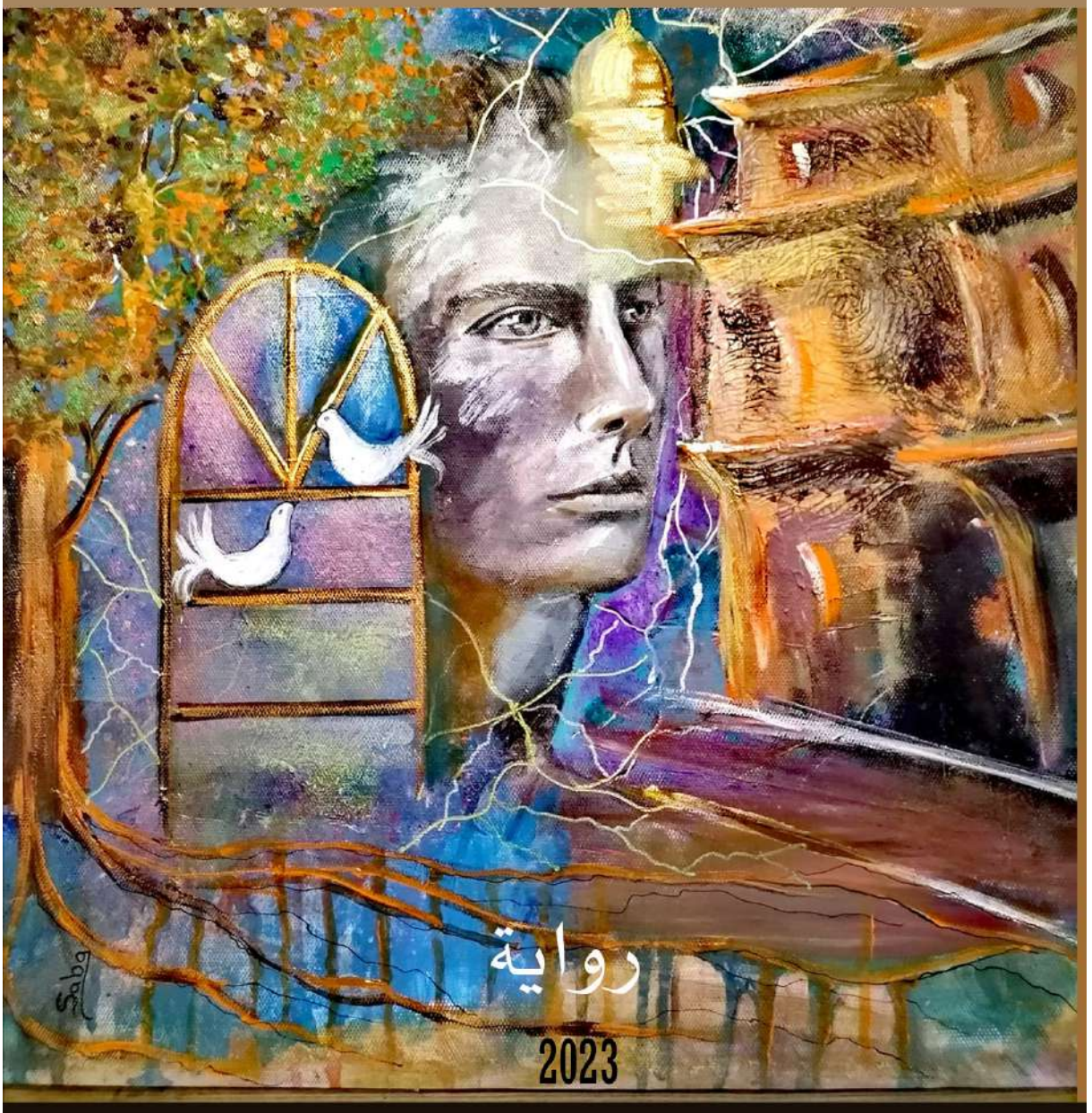

دار الإبداع
للطباعة والنشر والتوزيع

شجرة الليمون العجوز

●اسم الكتاب: شجرة الليمون العجوز

●المؤلف : د. رجاء صالح الجبوري

●الطبعة :الثانية / ٢٠٢٣

●الناشر :

صلاح الدين – تكريت – حي الزهور / ٠٧٧١٠٦٥١٩٦٨

/٠٧٧٢٢٤١٣٩١٢ ٠٧٨٠٦٣٩١٢٤٩

Osama196767@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة / لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه إلا بإذن خاص و مسبق من المؤلف .

ISBN : 6806919957978

لوحة الغلاف : الفنانة التشكيلية صبا غالب

هام : إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب
تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

رجاء صالح الجبوري

شجرة الليمون العجوز

رواية

أجل يا عزيزتي باري لأُعيدك إلى الحياة كتبت هذا الكتاب"

ناهيد رشلان

" إلــى أرواح أحبتــي الــذين لــم يحظــوا بنهايـات سـعيدة وحتــى لـا تختنــق كـل القصـــــــص تحـــــــت الأنقـــــــاض. كتبت هذه القصة."

رجاء صالح الجبوري

المقدمة

الصدفة البيضاء هي التي قادتني إلى الرواية أو قادتها إليّ، لا فرق. لم ألتق حتى الآن ولم أتعرف كاتبتها د. رجاء صالح الجبوري، بيد أنني عرفتها ملياً بعد أن قرأت بشغف روايتها المميزة، وأحسست أن الكاتبة الطبيبة تذكرني بالبارعين من الأدباء الأطباء أمثال تشيخوف ويوسف إدريس وعبد السلام العجيلي، ويمكن لي وبكثير من الطمأنينة أن أقول: إن هذه الروائية تنضم إليهم باقتدار وبراعة.

نحن أمام أول عمل روائي للكاتبة، وحقاً فإن الرواية تشير إلى موهبة جلية، وتقدم رؤيتها المتقدمة من خلال لغة مطواعة سلسة بعيدة عن التنطع والادعاء. وإلى هذا فهي تعبر عن روح المكان الموصلي بمهارة معتمدةً مزجَ ما هو فردي مع ما هو جماعي، ومحققة التكامل بين الذاتي والموضوعي، وموغلة في المحليّ الشعبي المزدان بحس إنساني فيه من الشجن ما يكفي، ومن الاقتران بالأسطورة ما يكفي للاقتراب من الواقعية السحرية.

إن أبطال الرواية يستنهضون في أرواحنا أولئك الأبطال التراجيديين اليونانيين الذين يواجهون تحدي الآلهة، وما قدّرته عليهم ببسالة. قلبهم يقظ لا ينكسر أمام سطوة القدر، وبهذا فهم شهود عيان على بشاعة الحروب التي سعت إلى تقويض حياتهم. إنهم يعيشون في جحيم خاص، ولكن وردة الأمل تظل يانعة في نفوسهم.

حقاً إننا أمام رواية طهور فيها عفة، وتاريخ روحي للموصل والعراق في لحظات من أشد لحظات التاريخ جنوناً، وحقاً إن التعبير

عن مشاعر الحب والحرية والانتماء إلى الوطن وأناسه البسطاء يتم من دون استدرار العواطف الفجة، فهو يستعين بصدق وغنى التجربة مستنداً إلى شاعرية تومئ ولا تفصح، توحي ولا تعلن وإلى لغة مكثفة دقيقة.

أفرحتني هذه الرواية، وأفرحني سير الروائية على حقل من الألغام من دون أن تقع في خطيئة عدم الفهم والإدراك. أفرحتني حكمة الروائية وأبهجني حزنها المضيء المنفتح على الحياة.

الأستاذ الدكتور: نجمان ياسين
الرئيس الأسبق للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

قصة شجرة الليمون

_ هيا يا صغيري إلى النوم.

_ لن أنام من دون قصة.

_ حسناً، سأحكي لك قصة الأميرة والثعبان.

_ لا أريد، لا أريد، أريد قصة شجرة الليمون والبئر العجيب.

_ حسناً ، سأحكيها، لكن عليك أولاً أن ترقد في السرير.

كان ياما كان في قديم الزمان... قبل مائتي عام كان هناك رجل طيب يعيش في بيت ما هنا أو هناك داخل أسوار هذه المدينة. كان الرجل يصلي لله ويتعبد طوال الليل تحت شجرة ليمون في فناء بيته، وحين تطلع الشمس ينزل إلى قبو البيت، ويصلي طوال النهار، ويبتهل إلى الله، تقول الحكاية إن الرجل ختم القرآن ألف مرة في السرداب، وألف مرة تحت شجرة الليمون، وذات يوم انبجس في قبو البيت بئر ماء زلال. وكان لماء البئر هذه قدرة عجيبة، فقد كان يطفئ الحمى، ويشفي الحكاك، ويفك أسر القلوب المتعبة والحزينة:

الخائفون والمحزونون والمرضى جميعهم توافدوا إلى ذلك البئر، يغترفون ويغسلون وجوههم ويشربون، ثم يخرجون بعدها وكأنهم ولدوا من جديد.

وبعد سنوات مات الرجل الطيب، وقرر أحفاده ردم البئر؛ لأنهم سئموا كثرة الوافدين إلى البئر بحجة الاستشفاء واقتلاع شجرة الليمون؛ لأنها كبرت وصارت تحجب ضوء الشمس عن البيت، وحين اقترب أكبرهم يحمل فأسه، وقبل أن يهوي بها على الشجرة، شُلت يده، وظلت

مشلولة لأسبوع كاملٍ؛ حتى نصحه الأصدقاء أن يغسلها بماء البئر، وما إن فعل حتى عادت تتحرك كما كانت.

ومنذ ذلك الحين عرف الجميع أن روح الرجل الطيب تحرس شجرة الليمون، وروى شهود عيان أن طيف الرجل الصالح يتراءى لهم كل يوم ساعة الفجر، وهو يتوضأ ويصلي تحت الشجرة في البيت ذاته. مرت السنون وجف البئر، ولا تزال شجرة الليمون تؤتي أكلها كل عام رغم أنها تخطت من العمر مائتي عام.

أيوب

اسمي أيوب... ولدت هنا في نينوى على أرض الحضارة في مدينة يشطرها دجلة إلى نصفين، ويترك لها ساحلين؛ شرقياً، وغربياً. أتيت إلى الدنيا على غفلة من حروب بلادي، فقد أبصرت عيناي النور في زمن غير هذا الزمن، حيث لا حصار من أي نوع، ولا قنابل ولا صواريخ. فقط هناك أغانٍ جميلة. وضحكات وقصص تروى، يومها كان الطاعنون في السن فقط من يغادرون الدنيا إلى عالم الخلود. في زمان كان فيه للموت هيبة. حين لم تكن الأزهار تُقطف قبل تفتحها.

ولدت في بيت عتيق تفوح منه رائحة السنين والذكريات، وتردد جدرانه الرطبة صدى ضحكات من مروا به وآهاتهم ، أزمنة بعد أخرى. بيت صغير يتكون من غرفتين يتوسطهما إيوان؛ ننام أنا وجدتي في غرفة، بينما يشغل أبواي الغرفة الثانية، لم يكن لدينا حديقة، كان لدينا فناء صغير فقط، تتوسطه شجرة ليمون عجوز، وتعبث أشعة الشمس في أرجائه معظم أيام السنة.

أثاث بيتنا بسيط للغاية، ومقتنيات عائلتي محدودة جداً. كان في الإيوان أريكتان وكرسيان، وطاولة بسيطة نضع عليها المذياع أو التلفاز فيما بعد.

غرفتنا أنا وجدتي، تحتوي على سريرين حديديين، وخزانة منخفضة ترتب جدتي الثياب والمناشف والشراشف فيها، وترص الأغطية والوسائد، وفُرش السرير التي لا نحتاج إليها فوقه.

ما إن تعبر بوابة بيتنا الرخامية المبنية على شكل قوس مزيّن برموز اكتشفت فيما بعد أنها حروف عبرية، ستمشي حوالي المترين في قنطرة، ومن ثم إلى الحوش أو الفناء، إلى يسارك يطالعك الدرج المفضي إلى الطابق العلوي حيث خزانة صغيرة وتنور الطين، وفسحة كبيرة تضم أسرة حديدية ننام عليها في ليالي الصيف. يقابل السلالم في الركن البعيد زاوية صغيرة تستخدمها كل من أمي وجدتي لتحضير الطعام وحفظ المؤونة، كنا نسميها مطبخاً، ولكنني حين كبرت أدركت أنها لم تكن إلا مدخلاً للقبو.

يتطلب وصولك إلى قعر سردابنا أن تهبط تسع درجات ، ثلاث درجات، ثم باب خشبي ثقيل ثم ست درجات. سرداب قديم بني في أواخر القرن الثامن عشر. دافئ في الشتاء ومعتدل في الصيف. في جدرانه خزانات ورفوف كثيرة. كانت مقابض أبواب الخزانات تستهويني فهي مصنوعة من الكريستال المقولب ببراعة ودقة على شكل زهرة أو طائر. كنت أرصّ كتبي ومجلاتي على الرفوف. وأرتب ألعابي وسياراتي في الخزانات ذات الأبواب المزججة. أتذكر أنني انتزعت زهرة كريستالية من مقبض أحد الخزانات، وأهديتها إلى صديقتي في المدرسة. حين تهبط إلى أرض السرداب ستجد إلى يسارك أريكة قديمة تحت الشباك. وفي الجهة المقابلة مكتب لأبي، الذي كان يضع في أدراجه قواميس ومخطوطات وروايات ودواوين شعر قيد الترجمة. ودولاب حديدي مقفل طيلة الوقت أظن أن محتوياته كانت تخصّه أيضاً، أما دواليب القبو تلك المنحوتة والمشغولة بحرفية عالية كجزءٍ من جدرانه فقد كنت أشغلها بالكامل

لتوضيب ألعابي وكتبي ومجلاتي ودفاتر يومياتي ومذكراتي. فعل القرنان الماضيان فعلهما في جدران السرداب. فقد كانت الجدران تشي بعمر البناء بشكل لا يختلف عليه اثنان، فقد نال الدهر منها مناله.

ولدت ذات ربيع لأم قروية وأبٍ مدني. عراقيين بالولادة والنسب. جدتي فاطمة سيدة نجفية. كان أبوها تاجراً يبيع السجاد متنقلاً بين إيران والعراق، ولدتْ جدتي في عام١٩١٧ ،لأم فارسية تبريزية وأب عراقي موسوي النسب، إذ يعود نسبه إلى السادة الأشراف آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهي كما نقول في الموصل سيدية . كان لجدتي أخت واحدة تعيش في الأحواز. ولأبي أخت واحدة تقطن في بغداد مع زوج وأولاد.

ولدت أمي في قرية تقع في مكان ما على الضفة الشرقية لنهر دجلة. أسماها أبوها شمساً؛ لاعتقاده أن وجهها كان يشع نوراً يوم ولدت. كان على حق فقد كان لأمي وجه وضاء. الجميع كانوا ينادونها شمسة من باب التأنيث أما شمس فقد كان مقتصراً على شفاه أبي الذي اعتاد مناداتها شمس أو شمسي . حتى في المدرسة حيث كانت أمي تعمل مرشدة تربوية اعتادت المدرسات والطالبات جميعهن على مناداتها ست شمسة.

توفى جدي لأمي بعد ولادتها بعام. واقتضت التقاليد والعادات أن تتزوج جدتي لتعيش شمس في كنف خالها وزوجته اللذين حُرما من نعمة الإنجاب. وقبل أن تبلغ أمي سن السادسة حصل خالي على

وظيفة كحارس ليلي في معمل نسيج الموصل، فانتقلت الأسرة القروية إلى منطقة شعبية تقع جنوب الموصل. وهناك عاشت أمي طفولتها الأولى والتحقت بالمدرسة، ثم بالجامعة ، حيث التقاها أبي أول مرة .

كيف لمن لم يعش في كنف أب، ولم يذق حنان الأم أن يحمل مثل قلبك يا أمي؟

استطعت أن تهبينا كل ما حُرمت منه. فاقد الشيء يعطيه بسخاء أحيأنا.

كأنت أمي تغضب حين يذكّرها أحدهم بحرمانها من أبويها، فكانت تقول إن خالها وزوجته كانا لها خير أب وخير أم، وتتابع قائلة إن الله قد عوضها بحيدر (أبي) وماما فاطمة على حد تعبيرها.

كأنت أمي سيدة مجتمع من الطراز الأول، جميلة فارعة الطول ممشوقة القد. بوجه بيضاوي و جبين واسع وذقن مستدق وبشرة حنطية، وعينين سوداوين تشيان بكل ما يعتمل في قلبها. أنيقة ببساطة من دون بهرجة أو بذخ، ربة منزل ممتازة، وتحمل شهادة جامعية في علم النفس... امرأة هادئة إذا تكلمت تنطق عيناها. وإن غضبت تغضب عيناها، وإن فرحت تطفح السعادة من عينيها، كانت أمي شمساً، وأنا كويكب صغير يدور حولها. كانت نخلة عراقية شديدة البأس والعزم، كل المشكلات في نظر أمي تُحل بقرار، حتى تلك الخارجة عن نطاق سيطرتها أيضاً تتعامل معها بقرار. قرار النسيان وعدم العودة لخوض الموضوع ذاته مجدداً، حين كنت أناقشها في أمور أو قضايا يستعصي عليّ حلها، كانت تختصر المقال بعبارة:" هجر ما لا يفيد.. يفيد".

طيف في الفناء

نشأت قبل أن يعرف الصغار الخوف من الأشباح..

فالأشباح بالنسبة إلى أبناء جيلي ظاهرة مستحدثة، فأنا أنتمي إلى جيل لا يخشى العتمة، ولا ترعبه ظلمة السرداب، كانت جدتي تسمي الطيف الذي يتراءى في فناء بيتنا تحت شجرة الليمون كل يوم ساعة صلاة الفجر ملكاً. ولا تقبل أن يسميه أحد عفريتاً، أو جنياً، أو شيطاناً (والعياذ بالله). لا أدري فالجدات يعتقدن أن للأطياف حُرمة وخطوطاً حمراء لا يجدر بنا تخطيها؛ كانت تعتقد أن هذه الأطياف هي أرواح طيبة عاشت هنا منذ سنين؛ تحمي الدار وتجلب البركة إلى أهل البيت، وحين روت لنا أمي أنها رأت فجر أحد الأيام رجلاً بلباس أبيض يصلي تحت شجرة الليمون. قالت جدتي :

– الله ما بيننا وبينه، هذا ملك صالح، لا يؤذي أحداً.

لا أدري أين ذهبت تلك الأطياف الطيبة التي لا ترعب الصغار ولا الكبار. هل هاجرت مع من هاجر، أم أنها قُتلت مع من قُتل؟ ولماذا لم تعد تعاقب أولئك الذين يتعدّون على حُرمة المكان والزمان؟ ولماذا لم تثأر لمن احترموا خطوطها الحمر ولم يتخطوها يوماً.

كان عالمي صغيراً جداً، فأنا طفل انطوائي . وربما غريب الأطوار في نظر بعضهم، أمضي صباحات الصيف جالساً في فناء البيت على درجات السلم المفضي إلى السطح، أحمل دفتر جيب وقلماً أدون فيه حروف الهجاء والأرقام في سني عمري الأولى، ثم تطورت بعدها لأبدأ بتسطير يومياتي التي كانت تتخللها ومضات شعرية. ثم كبرت قليلاً، فصرت أحمل تحت إبطي كتاباً، أو جريدة أو أو مجلة، أو المزمار...

كنت أمضي أمسيات الصيف على سطح البيت، أنا وكتبي وأقلامي وخيالي الخصب. كنت أرتقي الدرجات الاثنتي عشر قبل غروب الشمس، فالمناظر التي تمتد أمامي وأنا أقف على سطح بيتنا، لا يشبهها شيء، ما إن تصل السطح حتى يخيل إليك أنك قد هبطت ببساط سحري على أرض من عالم الخيال، قباب ومنائر، كنائس ونواقيس وقلاع أثرية، أشجار السرو ورائحة أزهار الليمون...

أمضيت صيف طفولتي أتأمل هذه المشاهد، وأحفظ تفاصيلها حتى نقشت عميقاً على جدران ذاكرتي. وحين يهبط الليل، تشعر أن حياةً جديدة بدأت. الليل هناك فجر. فجر للأمنيات التي لا تعرف المستحيل. فجر للضحكات وأمسيات السمر والقصص الجميلة، أما في الشتاء فكنت أقضي ساعات ما بعد المدرسة في السرداب، أو القبو، سمّه كما يحلو لك، لكنه كان عالمي.

شبابيك السرداب أقرب إلى السقف... شبابيك كثيرة فلا يشكو سردابي من العتمة حتى في أيام الشتاء .. أريكتي تقع تحديداً تحت أول شباك إلى يسار باب القبو. لو عدت بالزمن لوجدتني أتكئ هناك أتصفح كتاباً أو ألهو بدمية، ولا تعجب إن وجدتني أكلم نفسي فتلك إحدى أهم ميزاتي فقد عشت طفلاً وحيداً مع أبوي وجدتي مدة سبعة أعوام. ترافقني في وحدتي، أقلامي ودفاتر الجيب ومجلات الأطفال والقصص المصورة والقليل من الألعاب والكثير من الخيال. كل من عرفني يعرف أنني دائم الجدال مع نفسي. كان ذلك نتيجة وحدتي، وسبباً لها، في الوقت نفسه ينفر الناس مني ،فالناس ينفرون من غريبي الأطوار، وأنا في نظرهم غريب الأطوار.

مضت طفولتي الأولى كحلم ليلة دافئة، أو كسحابة صيف مرت وأنا أتنقل بين الدرج العتيق والسرداب والسطح وحضن جدتي وحكاياتها الجميلة.

أمجد

كنت ألعب وحدي معظم الوقت، و مع صديقي في بعض الأحايين، فقد كان لي صديق واحد، اسمه أمجد، أمجد بن نجاة، هكذا كان يعرف بين سكان المحلة كان أمجد يكبرني بعامين. يطرق بابنا كل صباح تقريباً وهو ينادي من خلف الباب الموصد: أيووووب... أيووووب... فأهرع لأفتح الباب، و يطل بوجهه المُدور وبشرته البيضاء وعينيه العسليتين وأنفه الأفطس. يبتسم فيفتر ثغره عن أسنان ناتئة صغيرة أكلها السوس . أسمح له بالدخول فننسحب بهدوء لنتخذ مجلسنا على سلم بيتنا المتآكل من وقع الأقدام التي ارتقته عقداً بعد عقد. يخرج كيس السكاكر الذي لا يفارق جيبه ويبدأ بالقضم، ويعرض على واحدة فأعتذر. يحاول ترغيبي قائلاً:

_ حامض، لذيذ، ويغمز بإحدى عينيه تعبيراً عن استمتاعه بطعم السكاكر.

كانت جلساتنا وحواراتنا تتمحور حول مراجعات جدول الضرب ودروس الإملاء .

سألته مرة: كيف تكتب ملائكة؟

فتناول كتلة من الجص كنا نستخدمها كطباشير وخط على الجدار كلمة "ملايكة"

سخرت منه وأخبرته أنني اكتشفت أن ثمة همزة تجلس على كرسي، ثم أريتهُ صفحة من جريدة ليعرف كيف تكون تلك الهمزة المرتاحة على كرسيها. نهضت بعدها لأكتب كلمة ملائكة بالطبشور على الجدار الرطب، و أتناول بعدها إسفنجتي المبللة ؛ لأمحو ما خطته أناملنا أنا وصديقي كيلا أُغضب أمي. كان أمجد يخاف حين أحدث نفسي في حضوره، فمرة سألني ١٤ ضرب ٢ فتلعثمت ثم أجبته ٢٧، استدركت مغمضاً عينيّ وأنا اقول لا يا أيوب لا يا أيوب ٢٨ ثم فتحت عيني فإذا بأمجد متكور على نفسه يرتجف، ثم ركض إلى الباب وفتحه مغادراً من دون أن ينظر وراءه. مر أسبوع من دون أن يطرق أمجد باب بيتنا. افتقدته أمي. وحين صادفت أختي في الشارع ذات نهار، سألتها عنه، فأخبرتها أنه مصاب بالحمى وراقد في السرير منذ أيام. عارضت أمي فكرة أن أذهب لزيارته متعللة بخوفها من انتقال العدوى إلي. مرت أيام وأيام ولا أثر لصديقي.

حل الخريف بشمسه الخجول وغيومه البيضاء، وفي أول صباحات تشرين حملت حقيبتي المحملة بالدفاتر والأقلام وممحاة معطرة ومبراة على شكل سيارة كان صديق والدي قد أهداها لي كتذكار من إحدى دول الخليج حيث كان يعمل هناك في إحدى شركات النفط.

رافقني في رحلتي الأولى إلى العالم الخارجي أمي بطولها الفارع وشعرها الملفوف على شكل كعكة في مؤخره رأسها ترتدي تنورة بنية

تصل إلى ما تحت ركبتيها، وقميصاً بلون الكهرمان، وحذاء بنياً بكعب منخفض وحقيبة يد صغيرة من لون الحذاء نفسه، وفي الطريق توقفنا عند عمي ياسين البقال لشراء البسكويت ثم أكملنا المسير والفرحة بادية في عيون أمي التي كانت تسترق النظر إلي بين الفينة والأخرى ، لترسل ابتسامة وديعة وكأنها تقول:

_ أنا فخورة بك.

تركتني أمي عند باب المدرسة لتكمل مسيرها الي ثانوية البنات حيث تعمل مرشدة تربوية هناك.

كان يومي الأول في المدرسة يشبه كل تجاربي الأولى، مملوءاً بالإنصات والترقب من جهتي، والحملقة في وجهي من جهة الآخرين ، بينما عقلي يعمل على تحليل كل ما تقع عليه عيناي، وكل ما يطرق أذني وتتكفل مخيلتي بنسج السيناريوهات الفضفاضة لتفسير ما يعجز عقلي عن فهمه وإدراكه.

لا أدري لماذا يتفرس في ملامحي كل من يمر من أمامي! الجميع ينظرون إلي وكأنني قطعة أثرية، أو كائن فضائي حط لتوه من المريخ. كانت أمي تقول إن لي عينين تجبران كل من يمر إلى جواري على النظر إلي . هكذا هنّ الأمهات.

انتظمنا في فناء المدرسة في طابور. وقفت إلى جواري فتاة ضئيلة بشعر أشقر وعيون نرجسية و بشرة خمرية، تدعى يمامة . نادوا على كل الأسماء وتوزع تلامذة الصف الأول إلى صفوفهم، ولم يبق سوى ثلاثة، يمامة وأنا وولد أسمر بشعر أشعث ، نادت على أسمائنا نحن الثلاثة سيدة بدينة ترتدي ثوباً رمادياً بمربعات بيضاء، اتضح فيما بعد

أنها معلمتنا الست باسمة. ركضنا نحو صفنا، جلست إلى جواري يمامة. في ركن قصي من الصف. مسكينة يمامة كيف ستبصر اللوح من هذا البعد مع صغر قامتها وضآلة حجمها، انتهى نصف يومنا الأول في المدرسة وها هو جرس الفسحة يرن . خرجت إلى الفناء لاستكشاف ما فيه. وبينما كنت أتمشى وحيداً بين جموع التلاميذ. ظهر أمجد أمامي مثل مارد خرج من القمقم لتوه بأنف أفطس وأسنان ناتئة نخرها السوس وكيس السكاكر في يده.

- أمجد. صحت بشوق .
- أهلا أيوب .
- لماذا لم تعد تأتي إلينا.
- لا، يا حبيبي، لن آتي فبيتكم مسكون. أمي تقول إن عفاريت سردابكم قد لوثت عقلك، وتخشى أن تنتقل لوثتك إليّ.
- اخرس، يا سنجاب، يا قارض الحلوى. صرخت غاضباً.
- أمي تقول إنك ممسوس، فالأطفال في عمرك لا يجيدون القراءة، ولا يحفظون جدول الضرب، إنها عفاريت السرداب قد مستك بجنون.

دق الجرس معلناً انتهاء الفرصة، وركض أمجد عائداً إلى صفه، بينما عدت إلى صفي مقهوراً ، والشرر يتطاير من عيني.

مر اليوم الدراسي الأول بين طوابير ومناداة بالأسماء الثلاثية . ولا أدري كيف مضى الوقت، وإذ بجرس الانصراف يدق معلناً نهاية الدوام .

انصرفنا في طابور، كل تلميذ يمسك يد زميله أو زميلته، بينما نمشي في أروقة المدرسة بهدوء تام والمعلمة تمشي في محاذاتنا وهي تهمس" بهدوء ... بهدوء" متكئة في كل مرة على الحرف واو...

- بهدوء اثنين... اثنين. كنت أتطلع حولي كعادتي.. كنا الصف الوحيد الذي ينصرف بهدوء... اثنين... اثنين، في حين كان تلاميذ المدرسة يتدفقون من أبواب الصفوف كأنهم يخرجون في مظاهرة والكل يهتف: إلى البيوت ... إلى البيوت... والغريب أنهم كانوا يتكئون على الواو كما تفعل المعلمة وكما كان أمجد يفعل حين كان يناديني من وراء باب بيتنا كل صباح قبل أن تكتشف أمه أنني ممسوس... سرحت في خيالي وصرت أتخيل جارتنا نجاة والدة أمجد بشعرها المسرح إلى الخلف وعنقها المنتفخ بسبب تضخم غدة ما في أسفل مقدمة عنقها، وعينيها الجاحظتين وأجفانها المحمرة وهي تناديني ممسووووس ممسووووس... أجفلت من خاطري ذاك مفزوعاً وعدت إلى يمامة التي كانت أصابعها الصغيرة قد تعرقت في باطن كفي.

ما إن عبرنا باب المدرسة الخارجي حتى أفلتت يمامة يدها من يدي، وأشارت إلي نحو بيتها الواقع على ضفة الشارع المقابلة للمدرسة. لم يكن عليها إلا أن تعبر الشارع وتطرق الباب لتكون في البيت. رافقتها حتى باب بيتها، كان بيتها قصراً بالنسبة إلى بيتنا على الأقل كان

حديث الطراز على عكس بيتنا الذي بُنيَ منذ قرنين ... لم أغبط يمامة على بيتها الجميل، فقد أحببت بيتنا كفرد من أفراد عائلتي ،كنت أحبه كجدتي أو كأحد أبوي . بعد تلك الوقفة التأملية أمام بيت يمامة، شعرت بيد تهبط على كتفي، كانت يد أمي. قفلنا راجعين في طريقنا إلى دكان العم ياسين، حيث تبضعت أمي بعض الحاجات للبيت . وفي الطريق رويت لأمي كل تفاصيل يومي بدءاً من يمامة الفتاة الدمية كما أسمتها أمي، مروراً بالمعلمة، وانتهاءً بحكاية كوني ممسوساً التي ابتدعها السيدة نجاة جارتنا. ابتسمت أمي ابتسامة تحمل بعض المرارة، وقالت بصرامتها المعهودة :

- رأي السيدة نجاة هو آخر ما يمكن أن يشغل بالنا.

ها قد وصلنا، طرقتان على الباب، وقبل أن تعود يدي إلى مكانها فتح الباب، وأطلت جدتي تعانقني، وتغني لي :

"هلا بيك هلا وبجيتك هلا"

بهذه الأهزوجة اعتاد العراقيون في الثمانينيات استقبال زيارات رأس السلطة آنذاك، بينما تستخدمها جدتي لاستقبال بطلها العائد من يومه الأول في المدرسة.

اعتادت جدتي أن تغني لي أغاني ترتجلها في لحظتها، ولا تعود إليها مرة أخرى، أغاني تشبه ثورة الوجد، كتلك النوتات التي ينقرها عازف العود على أوتاره في لحظة عشق أو حزن أو اشتياق تعتريه، ثم ينساها ولا يعود إليها مرة أخرى.

الأب الغائب

أما أبي، فهو ابن الحضارة والمدنية. رجل عملي يعرف كيف يفصل العمل عن المشاعر. كان يدير مكتبة تقع في شارع الفاروق أحد أقدم شوارع المدينة. هناك على الضفة الشرقية للشارع يقع متجر الكتب الخاص بأبي، يبيع أبي الكتب والدفاتر والأقلام ولوازم مكتبية. يبيع كل الأشياء التي أحبها. وفي المساء يعمل على ترجمة كتب ومخطوطات من العربية إلى الانكليزية وبالعكس ، كونه حاصلاً على شهادة جامعية في الترجمة. ويترجم أعمالاً أدبية من الفارسية إلى العربية. فالفارسية هي لغته الثانية تعلمها من أمه التي تعلمتها بدورها من أمها .

كان أبي رجلاً قوي البنيان؛ ذا بشرة بيضاء مشربة بحمرة، له وجه مدور كالبدر وعينان واستعان عسليتان .. وشفتان ممتلئتان وأنف مستدق. يحب الفكاهة، والابتسامة لا تفارق وجهه. يعمل طوال النهار في متجر الكتب وفي الليل يسهر على أعمال الترجمة.

لم أتناول غدائي ذلك اليوم، فقد قررت أن أنتظر أبي لنتشارك طعام الغداء. وفعلاً انتظرته وقبل أن تأفل شمس تشرين الشاحبة عن فنائنا، عاد أبي يحمل رزمة ورقية ناولها في عجالة إلى أمي، وخطا نحوي معانقاً ومقبّلاً:

- أهلاً بالتلميذ، أهلاً بالطالب المجد.

ثم جلس على الأريكة، وأجلسني في حجره وراح يسألني عن تفاصيل يومي وأنا أجيب. في أي شعبة صرت ألف أم باء؟ ما اسم معلمتك؟ ما اسم التلميذ الذي جلس إلى جوارك؟

لكنه لم يسألني فيما لو كنت قابلت أمجد أم لا.
اغتسل أبي بسرعة بينما أعدت أمي الطعام لكلينا. فوجئ حين أخبرته أمي أنني انتظرته لأشاركه وجبة الغداء. وراح يترنم فرحاً بابنه الذي كبر وصار صديقاً له.
لم يحدث أي جدل من أي نوع في بيتنا على مر السنوات الست الأولى من عمري. فأمي سيدة هادئة كتومة، وجدتي طيبة القلب كاظمة للغيظ تحبنا كنور عينيها. همها الأول والأخير سعادتنا. وأبي رجل كادح، يكد ليلاً ونهاراً ولا يملك من الوقت أو الجهد ما يبدده في النزاعات والجدال. إلا ذلك اليوم، حين اندفعت جدتي نحوه وهي ترعد وتزبد قابضة بيمينها على رزمة الأوراق التي جاء بها:
– ما هذا؟ كتب ممنوعة، يا حيدر، شيوعية! أين تريد أن تذهب بنفسك وبنا.
حدج أبي أمي الواقفة خلف جدتي، وهي تصالب ذراعيها على صدرها في تحد لا يُخفى بنظرة عتب قاسية. فجدتي امرأة أمية لا تقرأ، ولا شك في أن أمي قد وشت به عندها.
نهض أبي من مجلسه، وقد أربكه الموقف وطلب إلى جدتي أن تخفض صوتها ولا تجلب لنا المصائب. طال الجدال بين أبي وجدتي على الرغم من هبوط صوتيهما إلى مستوى الهمس، وأمي واقفة في مكانها، ولا شيء في نظرتها قد تغير.
في النهاية استطاع أبي أن يمتص غضب الجدة، ويقنعها أن الكتب لا تعدو كونها كتباً أبجدية في الفكر الماركسي ولن تسبب أي مشكلات .

هدأت ثورة الجدة لكن القلق كان لا يزال ساكناً في عينيها، تفضحه رجفة كفيها وأنفاسها المتسارعة.

عاد أبي ليكمل طعامه، وانسحبت أمي إلى فناء الدار بينما جلست الجدة شاردة الذهن، وأنا أراقب الجميع، وتستحوذ عليّ حالة من الهلع.

أمضينا ما تبقى من ساعات المساء في صمت مطبق. كان أبي ينصت إلى المذياع وجدتي وأمي مشغولتين في حياكة كنزة يبدو أنها كنزة طفل رضيع. وأنا ألهو ببعض الألعاب. ثم غلبني النعاس كما يحدث كل يوم، فحملني أبي ووضعني في فراشي. أذكر أنني استيقظت من نومي قبيل الفجر، وجلست قرب شباكي الصغير أسترق النظر إلى فناء البيت، وأنتظر ظهور طيف السرداب، الذي لم أره في حياتي، لكن ذاكرتي كانت محملة بقصص كثيرة عنه. قيل لي إنه يخرج كل يوم ليتوضأ من أجل صلاة الفجر. أجول بنظري في بيتنا. تعبر أمي من أمامي برداء زهري اللون. ألاحظ للمرة الأولى أن بطنها قد تكورت. وتمر في شريط الذاكرة القريبة صورة الكنزة الصوفية التي كانت تعكف على حياكتها ليلة أمس... لابد أنها تحمل طفلاً! ينتابني شعور جميل . وتأخذني خواطري إلى طفل جميل يلعب في مهده، له ضحكة أبي وعينا أمي. فتجتاحني بهجة لا أعلم مصدرها. ثم أغفو وصورة ذاك الطفل لا تزال تطوف في مخيلتي.

– أيوب... أيوب... اصحُ يا حبيبي، عليك الذهاب إلى المدرسة.

أفتح عيني لأجدها أمامي، فأعانقها، وكأنها كانت مسافرة وعادت للتو. تضحك مني وتقول:

– انهض، ولا تتحايل علي، هيا إلى المدرسة.

تغادر الغرفة، أتبعها مسرعاً، أغسل وجهي، وأبدل ثيابي، تساعدني في ربط حزامي وارتداء جواربي .

وعلى طاولة الإفطار أقضم قطعة خبز على عجل، وأبادر بسؤالها فلم أعد أطيق صبراً:

- ماما، ماذا في بطنك، لماذا هي كبيرة؟

وقبل أن تتغلب على دهشتها من سؤالي المباغت، وتنضم إلينا جدتي ضاحكة. فتجيب نيابة عن أمي قائلة :

- فيها طفل صغير، أخوك، أو ربما أختك.

تعاودني المشاعر ذاتها نحو الصغير، و أتذكر ابتسامته وعينيه كما رسمتهما في مخيلتي فأبتسم، وأنهض لأعانقها من جديد وأنا أتمتم:

- ماما، أنا أحبك.
- وأنا أيضا أحبك، أحبكم جميعاً... أنت والصغير وجدتي وبابا.

نغادر البيت، ونمشي في الدروب الضيقة نحو المدرسة من دون المرور بدكان العم ياسين هذه المرة، وما إن تنتهي متاهة الأزقة الضيقة ويطل على العالم الخارجي المختلف كلياً عن عالمنا نحن سكان المدينة العتيقة، فأشعة الشمس هنا أكثر سطوعاً، ومنبهات السيارات تضفي على المكان أجواءً من الصخب المربك وطراز العمارة الحديثة المختلف كلياً عن بيوتنا العتيقة. ترى لماذا لا يعيش الجميع في مستوى واحد، الكل فقراء، أو الكل أغنياء، أو الكل مكتفون؟ لماذا هذا البون الشاسع الفاصل بين عالمينا؟

أصحو من هاجسي أمام بيت يمامة ، ألتفت إلى الباب، هناك يافطة صغيرة معلقة على أحد جانبي الباب... فأبدأ بتهجئة الكلمات.. ال... دك... تو... ر س.... الم..... عبد.... الرحم.... ن.... سا..... لم تخبرني أمي أن الدكتور سالم عبد الرحمن شخصية أكاديمية وحزبي معروف.

وفي تلك الأثناء ينفتح الباب. لتطل منه امرأة تبدو عليها سيماء البساطة ومعها يمامة المستعدة للانطلاق إلى المدرسة. ما إن تلمحني يمامة حتى تقول لتلك السيدة بشيء من الفظاظة:

- عودي إلى البيت سأذهب مع صديقي.

انضمت الفتاة الضئيلة إلينا، تلاطفها أمي بكلمات رقيقة، قطعنا أنا ويمامة الشارع إلى المدرسة تحت أنظار أمي الواقفة هناك على الجهة الأخرى تنتظر وصولنا إلى الرصيف بأمان؛ لتكمل مسيرها إلى مدرسة البنات.

ظللت أعيد ترتيب المشهد، الدكتور سالم عبد الرحمن...أكاديمي... وحزبي معروف بيت فخم ... سيدة قروية بسيطة... هل هي أم يمامة؟ ولماذا تكلمها يمامة بجفاء ؟

بادرتها بالسؤال:

– لا تشبهين أمك أبداً!

– وأين رأيت أمي؟

– السيدة التي كانت معك بالباب قبل قليل.

ضحكت يمامة حتى كادت تتعثر، وقالت:

- إنها صبرية الخادمة، أمي لا تزال نائمة

لذت بالصمت لأخفي حرجي، عبرنا البوابة حينما رن جرس المدرسة معلناً بدء الطابور الصباحي.

أمضي فترة وقوفي في الطابور سارحاً في خيالي، بين أخي القادم، وبين خادمة عائلة يمامة، مسكينة أمي لماذا ليس لديها خادمة تساعدها.

صحوت من خواطري على يد تشدني، إنها يد يمامة تستعجلني؛ لنمضي إلى الصف، فقد انقضى طابور الصباح.

ولجنا صفنا ، وانتظمنا كل يجلس في مكانه، دخلت معلمتنا فقام الجميع تحية لها، فأشارت إلينا أن اجلسوا.

بدأت بالتعرف إلى أسمائنا، سألتنا واحداً تلو الآخر ما اسمك، وما الأحرف التي تجيد كتابتها؟ وحين جاء دوري، أخبرتها أنني أيوب حيدر عبد الله، وأنا أجيد الكتابة، وأقرأ عن طريق التهجئة، فرفعت المعلمة حاجباً كناية عن عدم التصديق، ودعتني إلى اللوحة وراحت تملي علي بعض الكلمات

_ اكتب اسمك... بابا... ماما... بيت...

وحين نجحت في كتابة كل الكلمات التي أملتها علي، طلبت إلي الرجوع إلى مقعدي، ثم طلبت من التلاميذ التصفيق لي.

أمضيت يومي تغمرني نشوة الإنجاز، فقد صرت معروفاً بين التلاميذ يشيرون إلي وهم يقولون : " الولد الشاطر... الولد النابغة.

عدت إلى البيت راكضاً وكلي شوق لأزف إلى أمي بشرى انتصاراتي التي حققتها على لوحة الإملاء.

فتحت لي جدتي الباب وقد بان عليها الغم ، دخلت المطبخ فلم أجد أمي تركت حقيبتي عند أقرب ركن، وولجت الإيوان، فإذا بها تبكي . ربما أصاب الصغير مكروهاً. تساءلت في نفسي .

التفت إلى جدتي وفي عيني ألف تساؤل:

- ماذا هناك ؟
- لا شيء، ماما لديها صداع لا أكثر، اذهب وبدل ثيابك، واسترح على سريرك بينما يجهز الغداء.

خُيّل إلي بعدها بنصف ساعة أنني أسمع من يناديني:

–أيووووب.

الاتكاء على الواو عادة أمجد. قفزت من على سريري وهرعت لأفتح الباب، إنه أمجد بأسنانه الناتئة المتآكلة، دعوته للدخول لكنه رفض متعللاً بأن أمه قد تذبحه إذا علمت أنه دخل بيت الأشباح.

- حقير... اسكت... الأشباح تسكن في غدة أمك المتورمة، بيتنا تسكنه الملائكة. وكدت أغلق الباب في وجهه لولا أني سمعته يقول:
- أبوك... أبوك.

ففتحت الباب وسألته بتذمر واضح :

- هل هو ممسوس أيضاً؟
- الأمن أخذوه من المكتبة اليوم صباحاً لأنه معارض للنظام . أغلقت الباب بوجهه، وأحسست كأن ثقلاً هبط علي.
- معارض! تساءلت في نفسي.

وعدت إلى سريري، فوجدت الجدة تنتظرني هناك

- ماذا يعني أمن؟ وما ذا تعني معارضة ؟

– شيء يشبه الشرطة، لا تخف، يا صغيري، سوء فهم صغير وسيحل قريباً، ويعود بابا إلينا.

أوجعني غياب أبي كثيراً، فقد صرت أخاف العتمة، وأخشى الظلام وترعبني الوحدة. أحس أنني هش، هشٌ للغاية وكأن وجوده كان درعاً لي، وفي غيابه صار ضعفي مكشوفاً.

أمسكت عن الكلام حتى ظنوا أني فقدت النطق.

مرت الأيام على وتيرة واحدة، الوجوم والقلق والصمت الأليم كانوا يخيمون على بيتنا. وفي نهاية الأسبوع الثاني لاحتجاز أبي في الثاني من تشرين أول عام ١٩٧٦ عرفنا أنه محتجز في قبو تابع لإحدى وزارات الدولة في بغداد، وأنه بحال جيدة، وتهمته هي تداول كتب ممنوعة.

مضت أسابيع وأسابيع وأبي في غياهب السجن، ولا أخبار تردنا منه، ولا سبيل إلى زيارته.

جاء الشتاء و كان أشد قسوة من شتاءات سبقته، وكأن أبي هو دفء البيت، وها قد فقدناه... السماء في ذاك الشتاء القابع بعيداً في رفوف الذاكرة كانت أشدّ عتمة من سماوات شتاءات اعتدناها.. الظلام زار سردابنا كما لم يفعل من قبل، صرت أكره السرداب. فكرسي أبي الفارغ، ومكتبه المرتب كما لم أعهده من دون فوضى، أوراقه وكتبه ومخطوطاته صارت تشعرني بالفجوة الباردة ذاتها التي تكاد تبتلعني كلما نزلت.

كل هذا وأنا ما أزال في السابعة من عمري. لا أدري أكَبِرتُ قبل أواني، أم أنني ولدت كبيراً! استمرت الحياة خارج بيتنا بالوتيرة المعتادة. أخرج مع أمي كل صباح، وحقيبتي على ظهري أقطع متاهات الدروب الضيقة والأزقة المتعرجة جسداً بلا روح، أو ربما كنصف إنسان، فنصف مني يمشي في الطريق ينظر ويتلفت، ونصف آخر يسرح في خيالات يبتدعها بنفسه. وكلها تدور حول عودة أبي. فتارة أتخيله قد عاد وجاء ليأخذني من المدرسة، وتارة أخرى أتخيل أنني أطرق باب بيتنا عائداً من المدرسة، ليفتح هو الباب فأجده أمامي. هكذا عشت أيام غيابه بنصف قلب ونصف عقل. وحين أصل إلى الشارع الفاصل بين عالمين ، عالم الجماهير الكادحة وعالم الرأسمالية. توقظني من أحلامي شمسه الساطعة وزمامير السيارات وضجيج الباعة، و وقع أقدام المارة ثم أقف لبرهة قصيرة أمام بوابة البيت، حيث تقطن عائلة يمامة حتى تخرج ومعها صبرية الخادمة التي صارت تعرفني الآن وتناديني أيوب متكئة على الواو كما يفعل الجميع. ثم نقطع الشارع معاً بأكف متعانقة ، أنا ويمامة.

بدأ يوم دراسي جديد ولا شيء جديد حروف وأرقام وعمليات حسابية بسيطة تعلمتها قبل فصلين ، أنسخ وأكتب في صمت، ثم يرن الجرس معلناً الفرصة ، فيتدفق

التلاميذ من باب الصف كسيل عارم، وكأنهم يتسابقون إلى بلوغ الجنة. بينما أبقى في مكاني جالساً على مقعدي، أطالع العالم بعيون خائفة، كمن يخاف أن يقترب من الناس كيلا يروا ضعفه .

وككل يوم ينتهي اليوم الدراسي بجرس آخر. فأعود أدراجي عبر المتاهة ذاتها، وتداعب إحساسي الخيالات ذاتها، تتمحور كلها حول عودة الأب المفقود.

أيام وشهور... ولا شيء جديد سوى بطن أمي الآخذة في النمو، يبدو أن الصغير كان يمارس حقه الكامل في الحياة ، أو أنه لم يكن لديه تصور عما نكابده خارج ظلمات عالمه الثلاث.

نفدت النقود والمدخرات، وراتب أمي لا يكاد يغطي حاجاتنا. أعادت جدتي صيانة آلة الخياطة المركونة منذ أعوام في القبو، وعادت تستقبل النسوة المحملات بلفائف القماش لخياطته وتقاضي المال مقابل ذلك...

يوسف

اقتربت أعياد الميلاد. ولا أخبار عن أبي، وفي ليلة الميلاد استيقظت على صوت جدتي تهمس بهمهمات لا أفهمها ، فقفزت من فراشي وتبعت الصوت، فإذا بأمي جالسة على حافة سريرها تتوجع ، وجدتي تقف إلى جوارها تردد :

- كاف هاء ياء عين صاد. كاف هاء ياء عين صاد.
- ماذا بك يا أمي؟ سألت والدموع تكاد تخنقني.
- لا شيء، يا حبيبي، إنه أخوك الصغير يريد أن يأتي ليلعب معك. تقول بينما تصطنع ابتسامة، وهي تكاد لا تتنفس من شدة الوجع.

تركتنا جدتي في هذه الأثناء، وخرجت لتفتح الباب لجارتنا التي أتت لتبقى معي حتى تعود كل من أمي وجدتي من المستشفى، إذ كانت أمي في حالة مخاض.

كانت ليلة طويلة. أمضيتها تحرسني ابنة الجيران كما طلبت منها جدتي.

سرحت خيالاتي إلى أفكار سوداوية هذه المرة، ماذا لو خسرت أمي؟ كيف سأكمل حياتي بلا أب ولا أم؟ وظل خيالي الخصب ينسج سيناريوهات مرعبة كتلك التي حدثت مع كوزيت في رواية البؤساء ، وقد تتبناني عمتي الكريهة لأكون كتوم سوير، أو ربما أعيش مشرداً مثل هكبيري فين. اختلطت هواجسي وأفكاري بعدها ونمت ، ولكن مخاوفي لم تنم فقد لحقت بي إلى عالم الأحلام، أفقت بعد مدة لا أعرف كم طالت على صوت جدتي، وهي تردد:

- صلوات على محمد وآل محمد.

فتحت عيني فإذا بها تحمل الصغير وأمي ممددة على الأريكة المقابلة، وهي تلف رأسها بعصابة والتعب ظاهر على ملامحها.

قفزت إلى حيث أمي لأعانقها، والعبرات تتكسر في حلقي، وأتمتم:

- لقد خفت عليك كثيراً...

عانقتني قائلة:

- يا حبيبي، لن أتركك أبداً فلا تخف انظر لقد جاء أخوك.

نظرت إلى وجه أخي... كم يشبه أبي! وجه بدري وشفاه ممتلئة، وعينان واسعتان.

أسمته أمي يوسف، فقد كانت ترى أن حبس أبي ظلماً لا يختلف عن حبس يوسف النبي.

كان دخول يوسف إلى عالمي في هذا التوقيت بالذات هو كل ما أحتاج إليه، يوسف الصغير وربما الضعيف منحني الأحاسيس التي افتقدت إليها في الشهور الأخيرة، الأمان... البهجة... الحب ... وأنهى حتى إشعار آخر إحساسي بالوحدة .

هكذا ولد يوسف في ليلة الميلاد المجيد ليكون الإضافة الأجمل إلى حياتي... ليبدد وجوده وحدتي وإحساسي بالضعف. صارت خيالاتي تدور حوله، وهواجسي كلها تخاف عليه. كم من الأحاديث التي تبادلناها والمغامرات التي خضناها وتسلقنا الجبال و قاتلنا غزاة يحاولون تدمير الأرض... كل هذا في خيالي وداخل جدران عقلي قبل أن يتعلم يوسف التحديق في الوجوه وقبل أن يبتسم .

ليلة العفو العام

حين أتم يوسف شهره الأول، وبعد مساء أمضيته أراقبه وهو ممدد في مهده ، إذ كانت متعتي تتلخص في التحديق في وجهه، تركت الكتب والدفاتر والأقلام ، وصار يوسف الصغير عالمي كله ،وحين هاجمني النعاس حملت نفسي إلى سريري، فقد أقلعت في غياب أبي عن عادة النوم أينما دهمني الوسن ، فأي سواعد كانت ستحملني إلى سريري وأبي غائب.

نمت ونامت معي كل خيالاتي مثلما نام يوسف لتبدأ رحلة الأحلام، فقد سكن يوسف أحلامي بعد أن احتل كامل يقظتي. لم أعلم كم ساعة أبحر قاربنا الصغير في دنيا الأحلام وكم ساعة مضت ونحن نقاتل معاً تنين الماء ؟ صحوت على صوت جدتي تتمتم بالحمد.

- الحمد لله الحمد لله. فتحت عيني بتكاسل فوجدت فراش جدتي فارغاً. هربت عيناي من خلال النافذة فإذا بثلاث أطياف تختلط في ظلام الفناء، أميز جسد أمي المنهك تلتحف برداء صوفي سميك، وجدتي تمطر طيفاً أعجف بالقبلات، بينما ينحني ليقبل ظهر كفها، من هذا الذي حطّ رحاله في فنائنا بعد انتصاف الليل؟

ثم التفت الرجل الهزيل إلى أمي، ووضع يده في يدها وتوجها إلى الإيوان تسبقهما جدتي بخطوتين، ولكن كيف يجرؤ على لمس يد أمي! دخلوا الإيوان، واستطعت أن أميز الصوت الدافئ القوي الذي افتقدته منذ...لا أدري كم من الوقت، لقد توقفت عن حساب أيام الغياب منذ جاء يوسف. إنه أبي هذا صوته، أقف أمامه فأعرف في عينيه نظرته الحادة؛ الابتسامة الدافئة، إنه أبي! أقفز إلى حجره

معانقاً، والدمع ينهمر من عيني، فقد أبي الكثير من وزنه، وذوت وجنتاه، وفقد وجهه استدارة البدر التي كانت تميزه، وزادت نظراته حدة، وصارت ابتسامته أقل عمقاً، فما عادت تصل إلى عينيه، وانطفأ الوهج الجميل الساكن عميقاً في روحه.

أحتضنه بكل ما أوتيت من قوة؛ لأثبتت لنفسي أنه هنا ، إنه هو... لقد عاد أبي...

يقبل وجنتي، ويضمني إلى صدره، فأرفع رأسي وأقول :

- لقد صار لدينا يوسف.
- حبيبي، أنت، و يوسف.

دفنت رأسي بين سترته وأضلاعه، لأستشعر دفء وجوده، وأماناً افتقدت إليه لشهور مضت.

وفجأة ومن دون إنذار مسبق صدح صوت يوسف بالصراخ. جفل أبي من صوت الطفل فركضت أمي إلى غرفتها، ونهض أبي حاملاً إياي، وقال: سنذهب لنرى يوسف. كان يصرخ ممدداً في مهده، حملته أمي، نظر أبي إليه مشدوهاً كمن يرى معجزة، بينما تحمله أمي بين يديها، تضمه إلى صدرها، وتلقمه ثديها التي تلقفها الصغير بنهم، شعرت بجسد أبي يهتز، إنه يضحك، ثم همس لي:

- يوسف هذا (جوعيّ).

فرددت ضاحكاً كمن يقلد غمغمة الصغير :

_نمنمنمنم.

إحساس لا يوصف بالطمأنينة.. أمي ... أبي.. يوسف... وجدتي... شعرت حينها أن كل شيء اكتمل، لم يعد ينقصني أي شيء .

طالت سهرتنا حتى مطلع الفجر، داهمني الوسن، فحملني أبي ووضعني بكل محبة في سريري ، دثرني بالغطاء وطبع قبلة على جبيني، وجثا على أرضية الغرفة يراقب أنفاسي، ويتأمل ملامحي التي افتقد إليها كثيراً أيام حبسه.

أنثى الدبوس

مرَّ آذار دافئاً مزهراً، قضيته بين المدرسة والبيت ومراقبة يوسف يكبر كل يوم أناغيه فيضحك، ثم أخبئ وجهي خلف ستارة، فيجول الغرفة بعينيه باحثاً عني، ويبتهج حين أظهر من جديد .

جاء موعد اجتماع الأمهات في الرابع من نيسان. بعد الظهر، ارتدت أمي أجمل ثيابها، وكان فستاناً ربيعياً من المخمل بلون ليلكي جميل، وعقداً ذهبياً يحمل اسمها. تزينت برقة فكانت متألقة كعادتها. دخلنا المدرسة ،وتعرفت أمي إلى معاونة المديرة التي اتضح أنها كانت زميلتها في الكلية ذاتها.

دخلنا القاعة التي ستلقي فيها السيدة مديرة المدرسة كلمتها. وهناك وجدنا يمامة مع سيدة بقوام ضئيل يشبه ما كانت عليه يمامة، إذ لا يتجاوز طول السيدة سالم عبد الرحمن ١٤٠سم . ترتدي ثوباً أسود تزينه وردات صفر وبرتقالية، والكثير من الحلي الذهبية أقراط وقلادة.. ودزينة من الأساور وساعة يد كبيرة، وما لا يقل عن سبعة خواتم . وتنتعل حذاء عالي الكعب، تغطي وجهها طبقة سميكة من المساحيق وأحمر شفاه بلون قان . كان شكلها مدبباً. فأنفها مدبب وشفاهها رفيعة.. وعيونها ضيقة ورأسها طولاني و شديدة النحافة، يخيل إلي أن

أمها كانت قد داست على كومة دبابيس حين كانت حبلى بها، فخرجت السيدة عبد الرحمن هكذا مدببة كدبوس .

جلست إلى جوارنا، واقتربت يمامة والخجل بادٍ على وجهها، حيتها أمي، تجاهلتنا أنثى الدبوس ،وكعادتي حاولت أن أجد مبررًا لعدم اقترابها منا، فخرجت بنتيجة أنها كانت ستشعر بالحرج لو وقفت بالقرب من أمي بطولها الفارع . مسكينة السيدة عبد الرحمن فنحن لا نختار كيف نبدو .

انتهت خطبة المديرة، وتوجهنا أنا وأمي إلى معلمتي لتسألها أمي عن مستواي العلمي...

أثنت الست باسمة علي، واصفة إياي بالعبقري، غير أنها عابت علي شرودي وقلة تركيزي... لم تعر أمي اهتماماً لانتقاد المعلمة لي، ولم تؤنبني على كثرة شرودي، وما إن ابتعدنا حتى خفضت جذعها حتى صار وجهها بمستوى عيني وقالت لي :

_أنا لا أنتظر من أحد أن يقوّمك، فأنت بطلي. والأبطال لا يحتاجون إلى شهادة الآخرين.

وبينما كنا نغادر، لمحنا السيدة دبوس تهم بالصعود في سيارة مرسيدس بيضاء اللون طراز ١٩٧٥. رأينا السيد سالم عبد الرحمن. كان رجلاً بديناً ضخماً أشقر الشعر، ببشرة بيضاء وخدود حمراء يبدو أن يمامة قد ورثت عن أبيها لون شعره و بشرته، وعن أمها ملامحها الدبوسية. تساءلت في نفسي لو كانت السيدة سالم عبد الرحمن هي أنثى الدبوس ماذا سيكون السيد سالم... أظن أنه سيكون إزميلاً .

نظرت السيدة دبوس نحونا، لتلفت انتباهنا إلى سيارتهم، تجاهلتها أمي هذه المرة، وحذوت حذوها في مكر ودهاء.

وحين ولجنا متاهة الدروب الضيقة المتعرجة، سألت أمي :

_ترى، إلى أين كانوا ذاهبين يا أمي ، لماذا أحضروا السيارة رغم أن بيتهم يبعد بضع خطوات عن المدرسة.

_ لا أدري، يا حبيبي، ربما أرادوا أن يرى الناس سيارتهم الجديدة.

_ ربما لا تستطيع أنثى الدبوس أن تعبر الشارع وحدها، قلت ضاحكاً فضحكت أمي وسألت :

_من هي أنثى الدبوس أيها المتنمر؟

اكتفيت بالضحك، وعدنا أدراجنا عبر متاهة الأزقة الضيقة ذاتها عائدينِ إلى البيت.

مرت أيام الربيع من دون أحداث تذكر على الأقل من منظور صبي في السابعة من العمر انتهت المدرسة.

ذهبنا أنا وأمي لاستلام نتيجتي، وكانت أنثى الدبوس حاضرة أيضاً، بادرناها بالتجاهل، فردته إلينا، جلسنا في صفي أنا وأمي متجاورين على المقعد الدراسي ذاته وكانت أمي تضمني تحت جناحيها، ربما لتخفف توتري أو لتخفي توترها هي. لا تستغربوا فأمي لا ترضى بأنصاف الأشياء، والنجاح في رأيها لا بد أن يكون تفوقاً بامتياز.

دخلت المعلمة تحمل رزمة من بطاقات الورق المقوى الملونة بالأحمر والأصفر والأخضر وقفت أمام اللوح واستهلت المقال ناظرة إلى البطاقة الأولى في الرزمة.

_أيوب حيدر عبد الله، الأول على الصف ...

قفزت أمي فرحاً، والتفتت إليّ تعانقني، نسينا لوهلة أمر البطاقة و المعلمة التي تنتظر من يستلمها منها .

خرجنا بعدها إلى ساحة المدرسة، وقفت أمي تتبادل التحية وتتجاذب أطراف الحديث مع صديقتها المعاونة. ورحت أنا ألهو وأقفز وألعب حولها.

وأخيراً، خرجت يمامة من الصف تتبعها أمها بملامح يعلوها الإحباط . توجهت يمامة مباشرة إليّ، فسألتها:

- ما هي نتيجتك؟
- ناجحة فقط .
- أنا الأول .
- طبعاً .... (البركة بأمك)، قالتها يمامة بأسلوب دبوسي، أحسست حينها أنها تشبه أمها إلى حد كبير.

لم أفهم ما كانت يمامة ترمي إليه، لأنني كنت أؤمن أنني هبة أمي، وكل شيء في حياتي هو ببركتها.

دهمتنا أنثى الدبوس، وسارعت إلى التقاط كف ابنتها، بينما تنظر إليّ شزراً، يبدو أنها ترى أن أبناء الطبقة العاملة لا يجب أن يتفوقوا على أبناء السلطة والمال .

عدنا أنا وأمي إلى البيت تحملنا فرحة أول نجاح، توقفنا عند دكان العم ياسين واشترت أمي كيساً كبيراً من حلوى التوفي (الجكليت) ،وصارت تمشي وتوزع الحلوى، وهي تقول "تفضلوا جقليت نجاح أيوب"

ظفر كل من صادفنا في ذلك اليوم بحفنة من جكليت ماركة الشخاط ... الحلوى الأفضل لدى أبناء طبقتنا في ذلك الحين.

أما جدتي، فقد صدحت بهلهولة عراقية هزت أركان المحلة، ما إن أخبرتها أنني الأول في صفي . كان البيت يومها كله يرقص فرحاً ،حتى جدرانه المنهكة كانت ترقص مبتهجة بأول نجاحاتي.

عاد أبي باكراً ذلك المساء. عانقني وضمني إليه حين أخبرته أمي بالخبر السعيد .

قال لي:

- اختر هديتك، يا حبيبي، ماذا أحضر لك؟

فأجبته :

- أريد حصالة نقود.

ضحك أبي قائلًا..

- أيها الرأسمالي، ماذا ستفعل بالحصالة؟

- أريد أن أجمع المال لأكون غنياً كوالد يمامة .

ضحك الجميع من أحلامي التي تسبق عمري.

يوسف أيها الصديق

بدأت عطلة الصيف، وطابت جلسات العائلة في حوش البيت. كان يوسف يحبو بيننا ويقلد ما نقوله وما نفعله.

نزلت ذات صباح إلى السرداب، وبدأت بمسح ألعابي وكتبي من الغبار الذي علاها في الشهور الأخيرة، فبين غياب أبي ومجيء يوسف إلى عالمي كنت قد ابتعدت عن أصدقائي القدامى من الكتب والأقلام والدفاتر.

رتبت مجلاتي وألعابي وقصصي في خزانة مزججة كيلا يصل إليها الغبار. أردت أن أحتفظ بها ليوسف ليقرأ كتبي وقصصي ويلهو بألعابي حين يكبر. وكعادتي سرح تفكيري في كيف سأعلمه القراءة والكتابة، وقبل هذا سأقرأ له ما إن يتعلم الكلام والإصغاء ، سأشتري لوحة وطباشير من نقود حصالتي لأُدرس يوسف حروف الهجاء والأرقام قطعت أمي شرودي حين دخلت السرداب لتتفقدني.

- ماذا لديك؟
- أرتب ألعابي وحاجياتي قصصي ومجلاتي؛ لاحتفظ بها ليوسف، فقد كبرت عليها.
- حبيبي، قالت أمي، وضمتني إليها.

في ذلك المساء صعدنا بعد العشاء لننام على سطح البيت كعادتنا في كل صيف، نصطحب معنا المذياع ليؤنس ما تبقى من سهرتنا. ارتقينا سلالم البيت. أنا أحمل المذياع، وأمي تحمل يوسف تتبعها جدتي، بينما يحمل أبي مهد يوسف.

كانت سهرة جميلة، حدثنا أبي عن ذكرياته أيام الجامعة، وكيف كان شاعر الجامعة المجهول الذي كان ينشر قصائده في مجلة كلية الآداب باسم مستعار. إذ كان يسمي نفسه شمس التبريزي..

- ومن شمس التبريزي.؟
- رجل من العارفين بالله.
- ولماذا هو بالذات؟

– على اسم أمك، فقد كنت معجبها السري، قال أبي مبتسماً.

احمرت وجنتا أمي، بينما انشغلت جدتي في ملاعبة يوسف. فتح والدي الراديو، فكانت أغنية للسيدة أم كلثوم

"عودت عيني على رؤياك.... وان مر يوم من غير رؤياك ما ينحسبش من عمري."

ذهبت بعدها إلى سريري، وصوت أمي وهي تهدهد أخي في مهده، يرن في مخيلتي، وسرحت في خيالاتي. بينما أنظر إلى النجوم، هل سأغرم عندما أكبر بفتاة كما حدث مع أبي؟ أريدها أن تكون جميلة وذكية كأمي، وطيبة كجدتي.

نال النعاس مني أخيرًا.

جدتي تقف عند مهد يوسف، وأنا إلى جوارها وتقول، ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ ﴾

أنصت إليها منتظراً منها أن تتم الآية، لكنها لم تتمها، فأسألها

- والسبع العجاف؟
- لا سبع عجاف. ترد جدتي.

أفتح عيني، فأرى جدتي نائمة في سريرها ويوسف نائم في "كاروكه" ولا أحد يقف قربه.

- إنه مجرد حلم، أقول لنفسي ملتفاً ببطانيتي عائداً إلى النوم.

صحوت مع أنفاس الصباح الأولى، الشمس لا تزال نائمة، لكن نورها يسبقها. غيوم رمادية وغيوم تصطبغ بلون النحاس، والقمر لا يزال في مكانه ينتظر شروق الشمس ليختبئ خلف ضيائها فلا يعود مرئياً. أخذت نفساً عميقاً فامتلأت رئتي بالهواء، تلفت حولي، وجدت سرير جدتي فارغاً، وأبي وأمي نائمين وقربهما "كاروك" الصغير. تسللت على أطراف أصابعي، وهبطت درجات السلم، مررت بتنور الطين، فوجدته لا يزال دافئاً من أثر الخبز. أكملت مسيري هبوطاً، وقبل أن تطأ قدماي أرضية الفناء، تسللت إلى أنفي رائحة الشاي "المهيل" وخبز التنور، رفعت ناظري، فرأيت جدتي تجلس على أريكة تحت شجرة الليمون وسبحة كهرمان ذات مئة حبة وحبة بين أصابعها، تسبح وتهلل، وتتمتم بأوراد وأذكار تبعث طمأنينة في النفس. تعلو وجهها البشاشة ما إن تلمحني قادماً إليها.

أقول:

- صباح الخير... صباح الورد، حتى

تضمني إلى صدرها، وأتخذ مجلسي قربها، بينما تكمل هي دورة في سبحتها، ثم تضعها جانباً وتنفخ في كفيها وتمسح بهما وجهها وصدرها، تستدير نحوي لتنفخ على رأسي ثم تطبع قبلة على جبيني، وتذهب بعدها إلى المطبخ، لا يطول غيابها، فتطل حاملة صينية الإفطار، تضعها أمامي وهي تهمس:

_"الريوك يا غالي"

"قوري" الشاي المصنوع من "الفرفوري" وصورة روميو وجولييت تزينه. و"استكانات" الشاي المذهبة و"شكردان" البلول الموروث عن جدتها، وصحن القيمر و دبس التمر المصنوع من تمر بساتين أهلها هناك في الفرات الأوسط، وخبز التنور الطازج، فطور ملكي.

كانت تحاول إطعامي بيدها، فأضحك، وأقول لها: " لقد كبرت وأستطيع أن أطعم نفسي".

وبعد الإفطار أتبعها إلى المطبخ لأقص عليها رؤياي، فإذا بأبي يطل من الدرج، أروي لهما ما حدث في منامي: فتستبشر جدتي وتقول:

_ الخير قادم ؛ يبدو أن أبواب الرزق ستفتح لأبيك.

- هل سيسجن يوسف، مثل يوسف بن يعقوب ؟
- لا سمح الله، يا بني، تجيب جدتي مجفلة.

تمضي أيام الصيف بين الحوش والسطح، ولكن وجودي في السرداب كان أقل من ذي قبل.

كان يوسف يكبر كل يوم، و قد بدأ يقلد الكلمات، بابا، وماما، ويسمي جدتي "تنا" ،أما أنا فكان يناديني "أوب" بدأت معالم لغة بدائية تتشكل في عقله الصغير الآخذ في الاتساع.

عاد أبي من عمله ذات مساء أيلولي ، يشبه كل أمسياتنا الخريفية، وبعد العشاء سمعته يقص على جدتي كيف أنه سيشترك مع صديق له في مشروع إنشاء مطبعة. و يشرح لها أنه سيبيع قطعة الأرض التي كان ينوي الشروع في بناء بيت لنا عليها. هزت جدتي رأسها في

إشارة منها لكي يكمل الحوار. ساد الغم ملامح أمي.. ولا أدري كيف لاحظ أبي ذلك فالتفت إليها قائلاً :

_لا تحملي هماً، سنة واحدة وتشتري أفضل منها. مشيراً إلى الأرض التي ينوي بيعها.

لم ترد أمي على وعده، واكتفت بالصمت كعلامة على عدم الاقتناع.

بدأ أبي مشروعه ومع بزوغ شمس الأول من تشرين كانت المطبعة قد بدأت بالعمل.

تغيّر أبي، وعاد الضياء المتقد عميقاً في روحه يشع من جديد، وصار كثيراً ما يتكلم بالأرقام ويمضي ساعات الليل الطويلة في السرداب عاكفاً على تنضيد المخطوطات وترقيمها تمهيداً لطبعها ونشرها. يبدو أن السبع السمان آتية.

صديقة جديدة

امتنعت يمامة عن اللعب معي، ما إن صرنا في الصف الثاني، معللة ذلك أنها قد كبرت ولن تلعب مع الصبية بعد الآن .

- ما الذي كبر فيك أنت لا تزالين بحجم دمية.
- على الأقل الدمى أجمل من الزرافات.
- أي زرافات ؟
- أمي تقول إن أمك تشبه الزرافة.
- وأمك ماذا تشبه؟ تشبه الدبوس وضممت إبهامي إلى سبابتي في إشارة إلى صغر الحجم... هكذا رددت عليها ثائراً.

مازال هذا الحوار عالقاً في ذاكرتي حتى اليوم. كم تمنيت لو أنني كنت أكثر لؤماً من ذلك! لكنت ضحكت، بل لكنت سقطت على الأرض من الضحك فقد كان تفسيري لتجاهل أنثى الدبوس لنا في اجتماع الأمهات صحيحاً.

أذكر وقتها أنني تركت صغيرة الدبوس ودخلت غرفة الصف، وحين عدت إلى البيت رويت لأمي ما دار بيني وبين يمامة.

قالت ببساطة :

- حبيبي أيوب، نحن نشبه أباءنا وأمهاتنا إلى حد لا يمكننا تصديقه. الذئاب لا تنجب الحملان، والأسود لا تنجب بنات آوى، وشجرة الورد لا تطرح الليمون.

ربما كان كلام أمي مقبولاً، لكنه ليس صحيحاً في معظم الأوقات، فنحن لا نشبه أهلنا إلى شبهاً تامّاً، فهناك صفات كثيرة لا تورّث.

ظهرت في صفنا فتاة جديدة جاءت من مدرسة أخرى...
مريم فتاة حنطية بعيون لوزية وشعر أسود فاحم مجدول في ضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسها وحتى منتصف ظهرها.
حين ترى مريم يخيل إليك أنها تبتسم لك. ففي قسمات وجهها ونظرة عينيها ابتسامة لا يُعرف مصدرها. لا تغادرها حتى حين تبكي.
علمت أن مريم يتيمة تعيش مع خالتها في حي قريب من المدرسة.
صارت مريم صديقتي. تجلس في المقعد الدراسي المحاذي لي من جهة اليمين. كانت تحب القراءة مثلي، وتنظم بعض أشعار الطفولة. أشعار كلها تتغنى بالطبيعة، فقصيدة عن قوس قزح وقصيدة عن المطر وأخرى عن الشمس، أحببت تلك التي تخاطب الشمس، ونسختها في دفتري من دون علم مريم.
لم يجمعني طريق العودة، كنا نفترق ما إن نعبر بوابة المدرسة
كنت أعيرها بعض القصص والمجلات في نهايات أسابيع الدراسة. مرة أعرتها قصة الملك أبو لحية، ومرة أعرتها قصة فتى النجوم، ومرة أعرتها كتاباً علمياً كان اسمه أعشاش الطيور.. كان قد صدر عن دار ثقافة الطفل آنذاك وبعضاً من أعداد مجلة مجلتي. لم تعرض علي يوماً أن تعيرني كتاباً، فحدست أنها لا تملك واحداً. حدثتها عن يوسف وعن أمي وجدتي، بيتنا والسرداب وشجرة الليمون العجوز.
تسارعت وتيرة الأيام، وبدأ عمل أبي بالازدهار . ويوسف يكبر وكل يوم يتعلم شيئاً جديداً. أكمل عامه الأول وخطا أولى خطواته في اليوم الأول من عامه الثاني وصار يشير إلى الأشياء بأسمائها، ويكون جملاً بسيطة، يضحك ويقلد... كان حقاً بهجة البيت.

عدوى الحصبة

ذات مساء عدت من المدرسة لأجد جارتنا تجلس على أريكة الحوش، وابنها الصغير في حجرها يرتدي ثوباً أحمر، وتعلو وجهه حمرة وعيناه متعبتان. كان يوسف يلهو بكرة صغيرة على بعد خطوات. وكانت السيدة تخبر جدتي أن ابنها محموم وحرارته لا تنخفض.

لم يطل غياب أمي، ولجت من القنطرة إلى الفناء، وحاجباها يكادان يلتقيان في إشارة إلى عدم الارتياح. سارعت إلى حمل يوسف ودخلت غرفتها، ولم يبرحاها حتى انصرفت السيدة. فخرجت بعدها، غسلت يوسف ووضعته في سريره فقد كبر على النوم في "كاروك"، ولا تزال علامات عدم الارتياح بادية عليها.

بادرتها جدتي بالسؤال

_ما الأمر؟ ماذا دهاك، يا ابنتي ؟

- يا أمي، هذا الطفل مصاب بالحصبة أخته طالبة في مدرستنا. اليوم طلبت إجازة متحججة بأن أخاها الأصغر مصاب بالحمى، وأن الطبيب أخبرهم بأنها حصبة ولكن شيخاً نصحهم أن يلبسوه ثوباً أحمر ويتجولوا به في الأزقة لتظهر البثور وتنطفئ جذوة الحمى.

﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ ﴾

- ردت جدتي في قلق.

مر الأسبوع بسلام، وبدأ الأسبوع الثاني ولا شيء يذكر حتى ظننت أن أمي نسيت الأمر.

وفي اليوم التاسع بعد زيارة الجارة، شعرت ببعض الإعياء، وفي نهاية الحصة الثالثة اقتربت المعلمة مني وهي تقول :

- أيوب، خداك يتوهجان حمرة ماذا بك؟

سألت بينما تتحسس براحة يدها جبيني :

- حرارتك مرتفعة. قالت في دهشة.

اتصلت المديرة بمدرسة أمي، وفي غضون دقائق كانت أمي تمسك بيدي بينما نعبر بوابة المدرسة في طريق المغادرة، سرنا و عينا أمي تنطقان بالقلق، سلكنا أقصر الطرق نحو البيت.

أوصتني أمي أن أتجنب الاقتراب من يوسف كيلا أنقل إليه العدوى. كان علي أن ألزم غرفتي. اصطحبتني بعد الظهر إلى عيادة خاصة تقع في شارع نينوى. كنت منهكاً من الحمى فلم استمتع برحلتي إلى السوق، تلك التي لم تكن تتكرر كثيراً .

كانت عيادة الطبيب بيتاً قديماً يشبه بيتنا؛ غرفتين للانتظار حيث يتراصف المرضى وذووهم على آرائك خشبية.

بينما ننتظر دورنا. دخل العيادة صبي في مثل عمري، كان الصبي يمشي على أربع، يحبو كما الصغار، حتى إنه كان ينعتل زوجين من الأحذية في قدميه، وزوجين في كفيه. مازلت أذكر كم أصابني الضيق لمرأى ذلك الفتى. كانت المرة الأولى التي ترى فيها عيناي إنساناً سلبته الطبيعة قدرة منحتها لغيره من دون اجتهاد. كان مرأى الفتى المعوق هو صدمتي الأولى. انتابني يومها إحساس بالخوف لا أفهم كنهه، علمت فيما بعد أنني اكتشفت يومها أن الحياة ليست عادلة على الأقل من منظور أهل الأرض .

كبرت، وكلما قطعت شارع "السرجخانة" أشعر بالضيق ذاته الذي سكنني حين عبر الطفل المعوق الشارع ذاته حبواً على مرأى مني منذ سنين طويلة.

حان دورنا ودخلنا إلى الطبيب. كان وجهه نورانياً، وشعره أشيب. ونظاراته سميكة تحجب عينيه عنا، بادر إلى رفع شعر غرتي عن جبيني. تفحص خط الشعر ثم هز رأسه كأنه وجد ضالته. نظر خلف أذني، ثم تناول أداة تشبه المسطرة مصنوعة من "الستانلس ستيل" مغموسة في سائل مر المذاق، ضغط فيها لساني وتفحص أسناني التفت بعدها إلى أمي، قائلاً:

- على الأغلب حصبة.

ووصف لي بعض محاليل الأدوية مرة المذاق.

سهرت أمي ليلتها قربي، تتناوب مع جدتي على متابعة الكمادات الباردة الموضوعة على جبيني لمحاربة الحمى

مرت أيام الحمى طويلة وثقيلة، ومن دون الذهاب إلى المدرسة.

بعد ظهر اليوم الثالث، زارتنا خالة مريم للاطمئنان علي، واعتذرت عن عدم إحضار مريم، كنت في غرفتي ولم أخرج لإلقاء التحية. سمعت مقتطفات من حديث أمي وجدتي مع السيدة، فقد كان الصراع بين اليقظة والنعاس محتداً بفعل الحمى والمسكنات.

وبعد أحد عشر يوماً ظهرت أولى البثور، وبدأت الحمى تنحسر. منحتني مديرة المدرسة إجازة مفتوحة حتى تختفي آخر البثور .

يومان بلا حمى والبثور تغطي جسدي كله. عادت أمي من عملها... فطرق سمعي حوار دار بينها وبين جدتي؛ تقول الجدة :

- يوسف خامل وجبينه ساخن!

حملته أمي إلى الطبيب الذي عالجني نفسه، فأخبرها أن العدوى قد انتقلت إليه، وحذرها من ارتفاع حرارته فهو صغير ودماغه غير مكتمل بعد والحرارة قد تؤذيه.

مضت أيام الحمى، وأمي لم يطبق لها جفنٌ تسهر ساعات الليل كلها، ترفع كمادة لتضع أخرى ويوسف يئن تحت وطأة الحمى... مرَّ اثنا عشر يوماً بالتمام وظهرت البثور أخيراً غير أن الحمى استمرت، فقد كانت حرارته ترتفع مع بدء توهج البثور ثم تنطفئان معاً. انتهت معركة الحصبة في بيتنا بعد خمسة أسابيع؛ أسبوعين لي وثلاثة من حصة يوسف المسكين...

يوسف

توهمت يوم غادر شبح الحصبة بيتنا أن المعركة انتهت، وأن كل شيء سيعود إلى سابق عهده، واتضح لي فيما بعد أن تأريخ عائلتنا قد تغير و إلى الأبد.

عدت إلى مدرستي، وعاودت أمي عملها بعد إجازة طويلة، ولكن، لم يعد يوسف يهرع إلى ملاقاتي حين عودتي من المدرسة، ولا يتلهف لأخذ الحلوى التي كنت أحضرها له، وما عادت كتبي ودفاتري تثير نهمه الجميل إلى العبث والشخبطة. صار يوسف منطوياً على ذاته يحشر نفسه في أي زاوية صغيرة بين أثاث البيت معظم الوقت، ولا يتنبه إلى من يناديه ، لا ينظر في عيني أحد ويخشى العناق.

في البدء ظنت أمي أنه لا يزال متعباً ، أما جدتي فقد كانت متفائلة كما هي دوماً و ترفض الخوض في أي حديث يتعلق بالتغييرات التي استجدت في سلوك يوسف؛ إذ كانت تعدّ مجرد التطرق إلى الموضوع فألاً سيئاً.

فاض الصبر بأمي بعد شهر، فحملت يوسف ذات مساء وعادت به إلى طبيبه المعالج ولكن هذه المرة رافقها أبي الذي كاد يتملكه القلق على يوسف.

مرت ساعات ما بعد الظهر وأنا ممدد على بطني ألوح بساقاي بينما أنسخ واجبات القراءة. وأحل تمارين الرياضيات. وجدتي تتظاهر بالانشغال بمتابعة فيلم على القناة الأولى. غابت الشمس ولا أثر لوالدي ومعهما يوسف.

حين ظهرت النجوم في السماء صار القلق بادياً على تصرفات جدتي . صار صوت تسبيحها مسموعاً أكثر . وأخيراً قامت وفتحت الباب ووقفت عند العتبة بانتظار عودتهم.

عاد والداي أخيراً، و تنفست جدتي الصعداء. كان أبي محبطاً، أما أمي فقد كانت عيناها مملوءتين بالدموع

- الطبيب يقول إن الحصبة قد آذت دماغ يوسف، وربما أصابه تلف دماغي. قال أبي وكأن جبال الأرض كلها تستقر على عاتقيه.

عم الصمت بيتنا، وكأننا في مأتم، و أحلامنا كانت هي الفقيد. أحلاماً كنا قد رسمناها ليوسف ، مستقبل يوسف الجميل كروحه والمضيء كعينيه والمشرق كضحكاته، لن نقاتل معاً تنين الماء ، ولن نقاوم غزاة الأرض، ولن نتسلق الجبال . هكذا شَهِد السرداب عهداً جديداً وعزلة أخرى لم يعهدها من قبل.

زيارات متعددة للأطباء... فحوص مخبرية... وصور أشعة... وتخطيط كهربائي للدماغ. لا شيء خارج عن الطبيعي سوى ازدياد واضح في نشاط الدماغ الكهربائي. أدوية ومنشطات دماغ ولا شيء جديد، وكل يوم تزداد القوقعة التي يحيط بها يوسف نفسه سمكاً ويزداد تقوقعه داخلها.

حملت جدتي يوسف ودارت به على كل أنبياء وأولياء الموصل عليهم السلام بدءاً من مقام النبي يونس بن متى على تل التوبة، ومنه إلى مقام الخضر، ثم إلى النبي شيت والنبي جرجيس والنبي دانيال و كنيسة الطاهرة و دير مار متي ... وشيخ حنش... ويحيى بن القاسم

أو عريس ليلة كما تسميه جدتي.... وقضيب البان (عليهم السلام) وعلى باب كل ولي وكل نبي وكل رجل صالح علقت جدتي النذور، و أودعت أمنياتها بأن يكسر يوسف القمقم ويعود إلى سابق عهده. وتمضي الأيام والشهور و لا شيء جديد. إنها فقط سلوكيات جديدة تطرأ عليه كل يوم.

مع حلول عيده الثاني فقد يوسف معظم مهاراته، فما عاد يستطيع أن يفتح الباب فإذا أغلق الباب دونه؛ علق في الداخل!

فقد القدرة على المشاركة في أي نشاط مشترك مع أحد آخر، فقد صار ينفر من العناق أو أي تماس جسدي. إذا ناولته كوب ماء ظل يحدق في الكوب كمن لا يدري ما يفعل، عليك أن تضع الكوب أرضاً ليلتقطه بدوره . لم يعد يحدق في الوجوه، ولا يستجيب إلى النداء وكأنه نسي اسمه. فقد القدرة على التركيز، وهكذا أصبح يوسف مُغيباً بالكامل.

مضت أيام الصف الثاني، لا أدري كيف، فبين مرضي ومرض يوسف وما تبعه من تداعيات، عدت إلى شرنقتي و عزلتي الفكرية وخيالاتي وهواجسي، وحدها صديقتي مريم كانت من تستطيع اختراق الحواجز التي أحطت بها نفسي ...

أقلعت عن عادة التحدث إلى نفسي، وصرت أتحدث إلى مريم التي زارتنا مرات عدة مع خالتها. كنا نلعب في الفناء في ظل الليمونة العجوز، ونصعد إلى السطح نراقب جدتي وهي تعدّ الخبز على تنور الطين. كانت مريم تحب الخبز الطازج، وتطلب من جدتي أن تخبز لها خبزة صغيرة. تسميها مريم حنونة، وأما في بيتنا فكان اسمها

كعكة، وبعد أن تنهي جدتي الخبز؛ نحمل كعكاتنا وننزل لاستكمال اللعب، فتارة نقرأ، وتارة نقفز، ويوسف يطوف حولنا كعصفور صغير.

تقول مريم إن أباها مات في نكبة تشرين، لا أدري أي تشرين وأي نكبة فكل تشرين في بلادي كان يجلب حرباً أو نكبةً جديدة، كانت تتجنب الحديث عن أمها... يطغى التوتر على ملامحها حين يدور الحديث عن الأمهات، وكأنها تخشى أن يأتي دورها لتتكلم عن أمها هي أيضاً.

أما خالة مريم، فقد أحببتها كثيراً فهي سيدة طويلة بقامة منتصبة. كقامة جندي في استعراض عسكري. تلتحف دوماً بعباءة رأس سوداء، أو شادور كما تسميه جدتي، بشرتها سمراء بأنف مستدق، وعينين حادتين كعيني ذئب وصوت ذي بحة محببة... كانت الخالة وجدان تجنح كثيراً نحو الفكاهة. ولا تحب النظر إلى كل الأشياء بجدية. ورثت عنها مريم شيئاً من روح الدعابة، لكنها عند مريم كانت تشبه الكوميديا السوداء. مريم تطلق الدعابات في لحظات الوجع فتتركك في حيرة من أمرك، لا تدري أتضحك أم تبكي!

شارع الفاروق

انتهى الصف الثاني وكنت الأول في صفي، مرةً أخرى وجاء الصيف ومعه جاءت جلسات الحوش وسهرات السطح...

كان عمل أبي يزدهر ويتوسع كل يوم، وكما وعد أمي فبعد عام من بدء مشروعه اشترينا قطعة أرض، لكنها كانت على الضفة المقابلة للنهر في حي جديد، أو كما يصفه أبي_ منطقة راقية_.

رافقت أبي ذات يوم إلى مطبعته، مشينا في أزقة محلة الأحمدية ومحلة الشيخ فتحي وفي في ظلال الجدران المتداعية، وفي وسط ضجيج أصوات الصبية والباعة المتجولين، يهتفون بأعلى أصواتهم، كل ينادي على بضاعته. نزلنا بضع درجات اسمنتية. كان نزولنا إلى الشارع يشبه وصولنا إلى عالم آخر مختلف، شارع طويل بدعامات خرسانية على جانبيه. كان الذهول واضحاً على وجهي فأنشد أبي بيتاً شعرياً:

طاب المسير بشارع الفاروق..... مذ مهدوه فكان خير طريق

(الشاعر الموصلي إسماعيل حقي فرج)

مشينا، وأبي يحدثني بفخر كبير عن شارع الفاروق أحد أقدم الشوارع في مدينة الموصل، إذ تم افتتاحه العام ١٩٤٨ ،واكتمل العمل فيه العام ١٩٥٠ ،سمّي شارع الفاروق نسبة إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، وقيل إنه سمي كذلك نسبة إلى السيد خير الدين العمري الفاروقي الذي كان يشغل منصب مدير بلدية الموصل حينذاك، وقد رأسَ الوفد الرسمي الذي قام بافتتاح الشارع... مع السيد المتصرف مصطفى اليعقوبي ... وأخبرني أن شارع الفاروق يبدأ من دورة

المستشفى الجمهوري في محلة الشفاء وحتى تقاطع باب جديد مروراً بمناطق عديدة، مثل الخاتونية ومحلة اليهود والحمام المنقوشي ومحلة الأوس ومحلة شهر سوق ومحلة جامع الكبير. أما المساجد على جانبيه فقد كانت كثيرة، منها جامع العمري وجامع الجويجاتي وجامع عمر الأسود وجامع الصفار . ومن الكنائس كان هناك كنيسة الساعة وكنيسة العذراء .

هذه كانت رحلتي الأولى إلى الفاروق. مهما قرأت عن هذا الشارع فلن تستطيع أن تنطق اسمه كما يفعل الموصليون إذ يعمدون إلى تضخيم الواو، فيكون لاسم الشارع موسيقا خاصة تلمس قلب كل موصلي خرج يوماً من إحدى ضفتي الفاروق .

إنه أشبه بنهر يخترق المدينة العتيقة من جنوبها حتى الشمال .

انعطفنا يساراً قبل أن نصل إلى كنيسة الساعة مركز الآباء الدومنيكان، وولجنا متاهة أخرى من "الدرابين" الضيقة.

توقف أبي أمام باب يأتي منه ضجيج مختلف عن ضجيج السيارات وصيحات الصغار ونداءات الباعة المتجولين لقد كان صوت المطبعة! وصلنا أخيراً، قالها أبي مبتسماً .

هبطنا درجات رخامية ست لنصل إلى السرداب.

كانت رائحة الحبر والورق تأسر القلب ، أكداس الورق في كل مكان. تقف الماكينة في المنتصف تشبه وحشاً أسطورياً بساق واحدة، له دواليب وأسطوانات تدور بشكل مستمر .الغريب أن ضجيج الآلة لم يزعجني . أحببت كل شيء هناك، وبسرعة أفلتت يد أبي وركضت إلى أكداس الورق أتحسسها، وأتصفحها وأقرأ ما كتب فيها.

كان هناك بطاقات تعريفية لتجار وأطباء و دفاتر و وصولات ومخطوط قيد الطباعة لقاص موصلي شاب.

كانت رحلتي تلك تشبه رحلة اكتشاف الذات، الفاروق، ذلك النهر المتدفق، وتاريخ المدينة بأسرها يصب فيه، ثم المطبعة ورائحة الحبر والأوراق، ما زلت أذكر ذلك اليوم وكأنه يوم مولدي .

حرب السنوات الثماني

ذات صباح خريفي. كنت ألهو بسيارة لعبة، وأخاطب أبطالاً خياليين موجودين داخل عقلي، بينما كان يوسف يجلس أرضاً على مبعدة ثلاث خطوات مني، مُغيباً عن كل ما حوله ،يدور إطاراً بلاستيكياً كان يخص إحدى ألعابي يوماً... يدور الدولاب... الدولاب يدور .. ويوسف يردد... اننننن... اننننن... اننننن... وكأنه كان يحاول أن يحجب ضجيج العالم عن عقله ومسامعه من دون أي علامة تدل على اتصاله بما حوله.

كنت حينها في عامي الحادي عشر ويوسف يوشك على إتمام عامه الثالث .عاد أبي يومها من المكتبة قبل الزوال على غير عادته، عبر القنطرة والهم يعلو وجهه. دخل غرفة المعيشة وتناول المذياع وفتحه، فجاء صوت المذيع قائلاً:

بيان صادر من القيادة العامة للقوات المسلحة.

البيان رقم واحد.

تلا المذيع البيان، الذي لم أفهم منه الكثير، سوى أنه كان هناك سلطات رجعية وطائرات تشن غارات .

كان ذلك في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٩٨٠... علمت بعدها أن حرباً قد اندلعت بين العراق وإيران .

كان الهاجس الذي يشغل بال جدتي هو "ماذا لو طِلب حيدر إلى التجنيد ؟

ذكريات تشبه الحلم يشوبها ضباب النسيان

صرنا نمضي معظم أوقاتنا في السرداب . ظناً منا أن سردابنا العتيق كان سيصمد أمام قنابل " السوخوي".

وفي الصباح التالي أغار الطيران الإيراني على الموصل . كان الصوت الناجم عن ارتطام القنابل بالأرض مرعباً إلى حد كبير، الغريب أن يوسف كان يقفز مرتعباً قبل أن نسمع نحن صوت الانفجار. اعتقدت أمي أن أذناه تلتقطان الموجات تحت الصوتية.

كانت تلك هي ذكراي الأولى مع الخوف و رهاب الموت. أنا الذي نشأت واقفاً على الشباك أنتظر ظهور طيف شجرة الليمون، أصبحت أرتعد خوفاً من رائحة الموت!

علمنا فيما بعد أن الغارة طالت قاعدة جوية عسكرية في مطار الموصل. وأن البيوت المتاخمة للمطار تضررت، وسقط صاروخ ضال على حظيرة للمواشي.

طالت أيامنا في السرداب تحسباً لأي صاروخ ضال. لم تفتح المدرسة أبوابها ذاك الخريف، فقد تأجلت الدراسة إلى إشعار آخر .

تحولت كل الأحاديث والحوارات إلى الحرب، وماكنة الحرب... الموت... الدمار... مفقود... شهيد. أسير...

سيق الشباب غير المنخرطين في عملية تعليمية رسمية البالغين من العمر ثماني عشر عاماً فما فوق إلى الجبهة... حُلقت شعورهم تمهيداً لالتحاقهم بوحداتهم العسكرية؛ صرت أمشي في الشارع، فلا أرى شيئاً سوى رؤوس حليقة .

تقع الموصل بعيداً عن الحدود العراقية الإيرانية ونصيبها من الحرب كان يقتصر تقريباً على النعوش الملفوفة بالأعلام... فقد كان نصيب مدينتي منها وافراً، وكذلك اليافطات السود التي ملأت الجدران وتقاطعات الطرق وأسوار الحدائق العامة والمساجد.

الشهيد البطل فلان فلان الفلاني، استشهد في قاطع المحمرة

الشهيد البطل فلان الفلاني، استشهد في قاطع ديزفول

وهكذا المئات والمئات من النعوش المحمولة واليافطات السوداء .

اعتدنا أن نستفيق صباحاً على صوت النواح والعويل، بينما تتهامس النسوة:

- خطية فلان اليوم جابوه.

هكذا مرت سنوات الحرب الأولى، المزيد من اليتامى والثكالى والأرامل. لم يكن الخراب ظاهراً على بنيان المدينة بل على العكس. كانت آخذة بالعمران والنمو.. الخراب كان يعم القلوب والحزن والخوف والوجل كان يلف العيون ويسكن القلوب .

لم يُسقْ أبي إلى خدمة العلم؛ لأنه كان قد خِلق وقلبه إلى يمينه ... كان عيباً خلقياً لم يمنعه من ممارسة حياة طبيعية، لكن القانون العراقي يمنع تجنيد من هم في مثل حاله. راجع مركز التجنيد، فزودوه بورقة تثبت صحة موقفه من الخدمة العسكرية.

لم تدخل الحرب أزقة المدينة العتيقة ، حتى أغار الطيران الإيراني على مبنى يعرف "بالبارودخانة" التي تبعد مسير عشر دقائق من بيتنا غير بعيد عن باب سنجار، "البارودخانة" بناية تاريخية بنيت في القرن التاسع عشر تحديداً عام ١٨٣٤؛ لتكون جزءاً من سور المدينة

الشمالي الممتد حتى القلعة الرئيسة المطلة على دجلة، و المسماة بقلعة "باشطابيا" كانت "البارودخانة" مخزناً للعتاد والقنابل في العهد العثماني، ولا أدري لأي غرض استخدمها النظام في الثمانينيات .

في ذلك الحين عبر الخوف أسوار المدينة العتيقة ، وارتعشت قلوب الصغار والنساء والعجائز، فالموت أضحى قريباً...

هكذا مضى الجزء الثاني من طفولتي، حرب، صور من المعركة، نعوش... لافتات سوداء... عويل ونواح.

لكننا ننتمي إلى جيل يجيد سرقة الفرح واختلاس الضحكات، فلم تكن أيامنا تخلو من مرح طفولي ولعب و تقافز هنا وهناك، حتى في أثناء الحرب، صرت أميل إلى اللعب بالطيارة والدبابة، وتركت سيارات السباق.

بدأت المدرسة بعد ستة أسابيع من موعدها المفترض. لم نرَ معلم الرياضة ولا معاون المديرة، علمت فيما بعد أنهما يؤديان خدمة العلم في الجبهة، وحين صادفت معلمة الصف الأول كان الحزن بادياً عليها يسربلها السواد. أخبرتني أمي أن زوجها ضابط طيار سقطت طائرته أثناء إغارته على أرض العدو.

مع أنني أكره كلمة عدو، غير أنها كانت المفردة المستخدمة حينها.

مع استمرار المعارك قل عدد الرجال في كل مكان وزاد عدد النساء المتشحات بالسواد. كل يوم يشبه الذي قبله والذي تلاه . تتسرب أخبار الجبهة . إلى الشارع .فتنشر الأقاويل أن معركة تدور رحاها في العمارة أو البصرة أو خانقين أو بنجوين . ثم تقول إحداهن إن موعد إجازة فلان قد مضى ولا حس ولا خبر . ويمر موعد إجازات الكثيرين

من الجنود والضباط والمراتب و لا حس ولا خبر . فيعم الوجوم والتوجس في كل مكان ويكثر الهمس في الزوايا، ومن بين كلمات وعبارات كثيرة قد تفهمها تلتقط أذنك كلمة هجوم، قد يطول الحال بنا أسبوع أو أكثر حتى يظهر رشدي عبد الصاحب على التلفزيون صادحاً أيها الشعب العراقي العظيم .

بيان رقم كذا ...صرح ناطق عسكري.... بأن كذا وكذا وكذا وبأننا قد كبدنا العدو الكثير من الخسائر.. ودحرناهم ورددناهم خائبين،وخلال سويعات من إذاعة البيان على التلفاز أوعبر أثير الإذاعة يبدأ تدفق النعوش المتشحة بالعلم العراقي، ويعلو الصياح والعويل فلا تكاد ناصية شارع تخلو من يافطة سوداء أو اثنتين أو حتى ثلاث. ثم تأتي بعدها أخبار الجرحى . الراقدين في مستشفى الرشيد العسكري أو في مستشفى البصرة . وقبل أن يطلق قطار السابعة مساء صافرته منطلقاً من محطة الموصل قاصداً بغداد تكون الأمهات والآباء المسنون قد حجزوا مقاعدهم إلى بغداد ليتفقدوا جرحاهم. وهناك من كان يُفقد في أرض المعركة، فتبدأ رحلة تقصي شهود العيان ، فيرتحل أقرباؤه من مدينة إلى أخرى ومن القصبة إلى قرية.ليقابلوا آخر من رآه حياً من رفاق السلاح... هناك من ضاعت جثامينهم في أرض الحرام، وهناك من دفن تحت ركام الخناق والمواضع، وهناك من أُسِر... وهناك من غرق في نهر قارون...

لست هنا لأكتب التأريخ، أو لأتحرى الدقة والتسلل الزمني فيما أكتبه.... إنها فقط ذكريات طفل عاش في زمن الحرب.

ازدادت جولاتي في شارع فاروق، صرت أحمل طعام الغداء إلى أبي في المطبعة ظهيرة كل يوم بعد انقضاء المدرسة، إذ صار أبي ملزماً بأداء معظم أعمال المطبعة بعد أن سيق العمال إلى الجبهة، كما استأجر عاملاً لإدارة المكتبة. كان طالباً جامعياً يعمل بعد ساعات الدراسة ليعيل أمه وأخوته الصغار، اسمه علي يسكن غير بعيد عن بيتنا.

وبدلاً من أغاني أم كلثوم، وعبد الحليم التي كان صداها ينبعث من المحال التجارية و محال التسجيلات على طول الشارع. صارت الأناشيد الحماسية هي الغالبة :

شديت الجرغد بزنودي للوطن يا روحي ذودي ما ننسى الوصية يمة... .. فاضل عواد... ببحة صوته الجميلة

علقت هذه الأنشودة في ذاكرة الشارع العراقي إذ كان لها قصة.. ولكل أنشودة قصة.

أحنا مشينا للحرب حتى الوطن سالم يظل لاجيالنا ما زالت دموعي تخنقني كلما تذكرت هذه الأنشودة أو تردد صداها في ذاكرتي حتى الطفولة واللعب ما تحترگ يوم بلهب عدوانا ربما كانت هذه الأنشودة هي التي أعلنت فجر عصر احتراق الطفولة واللعب في الوطن، فمنذ سمعناها نشب فتيل الاحتراق الأول وكانت الطفولة.. أول من احترق.

رجل المطر

عادت أمي من عملها ذات مساء تحمل رزمة من كتب.. كانت كتباً في علم النفس.

استطعت أن التقط بشكل عابر عنوان أحدها، داء الوحدوية. عكفت أمي على القراءة طيلة فترة ما بعد الظهر وحتى عودة أبي ليلاً، ركنت بعدها كتبها جانباً.

وفي الصباح التالي استيقظت لأجدها تقرأ في كتاب كان اسمه سيكولوجية التوحد.

أخبرتني أنها مجازة هذا اليوم، فكان عليَّ أن أمضي في طريقي إلى المدرسة من دونها. أمضيت يومي المدرسي كأيام سبقته وأخرى تلته لا شيء جديد، وبعد انتصاف النهار دق جرس المدرسة معلناً انتهاء الدوام. حملت حقيبتي وتمشينا أنا ومريم عبر باحة المدرسة وعند البوابة ودعتني ملوحة بكفها ،وتوجهت غرباً، بينما توجهت أنا جنوباً... وخيالاتي تسرح في أمي وكتبها وإجازة من عملها أخذتها على غير عادتها... بعد طرقتين على الباب ظهرت أمي وهي بكامل أناقتها وكأنها على وشك الخروج، دخلت، وقبل أن أعبر القنطرة، قالت لي:

- اغتسل، وتناول غداءك، لنخرج سوياً.
- إلى أين؟ ومن سيوصل الغداء إلى أبي؟
- سأشرح كل شيء في الطريق.

وضعت حقيبة كتبي جانباً، و غسلت وجهي ويدي، وفي غرفة المعيشة وجدت الغداء جاهزاً، تناولت طعامي شارد الذهن ،وسفن أفكاري تبحر في بحر من الحيرة.

ناولتني جدتي "سفرطاس" الغداء، عند بوابة القنطرة، لحقت بي أمي تحمل يوسف التفتت إلى جدتي قائلة :

- مع السلامة "يوم"، قالتها بينما تتبادل مع جدتي نظرات تضامنية، استنتجت بعدها أن السيدتين متفقتان على كل شيء.

مشينا في زقاقنا، ثم انعطفنا يساراً، ثم عبر "دربونة "طويلة. ومنها إلى الزقاق الرئيس في محلة الأحمدية أو كما تسميه العجائز سوق اليهود، اتجهنا شمالاً، وهناك بدأت أمي بالكلام:

– سنذهب إلى أبيك، نناوله الغداء، وبعدها نأخذ يوسف إلى الطبيب

اكتفيت بالصمت كعلامة على الموافقة .

كان يوسف خائفاً من كل شيء؛ الأصوات الوجوه العربات... يدفن رأسه في صدر أمي مرتجفاً.

أشفقت عليه حتى كادت عيناي تدمعان، لماذا يحدث هذا ليوسف؟ لماذا لم تكن الحياة عادلة معه؟

مشيت بظهر محدودب وقلب مثقل بالهم، وكأنني في التسعين ولا أدري، أكبرتُ قبل أواني، أم أنني ولدت كبيراً ؟

وصلنا إلى الشارع، كان صوت عبد الحليم ينبعث من أحد المحال التجارية :

"يا فرحة كانت مالية عنيه واستكثرتها الدنيا عليه "

أغانٍ في الحرب! كان ذلك ممنوعاً في سني الحرب الأولى لكن إشارات السماء لا تعرف الممنوع. انهارت دفاعاتي وسكبت مدامعي. يوسف يسد أذنيه مرتعباً من زمامير السيارات، و ترتعش أنامله الصغيرة من رهبة المكان.

كانت أمي منشغلة في إلهاء يوسف ومحاولة طمأنته، فلم تلحظ بكائي .

أكملنا مسيرنا وأنا لا أكاد أبصر طريقي بسبب الدموع. وصلنا الفرع المؤدي إلى المطبعة.

لم يفاجأ أبي من قدوم أمي حاول أن يأخذ يوسف من حضنها ليلاعبه لكنه صرخ متشبثاً بشعرها وثيابها بقوة علامة على رفضه الانفصال عنها، دقائق في المطبعة، وانطلقنا جنوباً نحو تقاطع الساعة، مروراً بجامع الصفار بمئذنتيه النحيلتين ،وما إن وصلنا دورة الساعة حتى دقت ساعة الكنيسة ثلاث دقات متوالية معلنة الساعة الثالثة بعد الزوال.. كانت كنيسة اللاتين أو كنيسة الساعة مبنية من الحجارة بسور عال، وقبتين يتوسطهما برج وفي البرج ساعة وهبتها للكنيسة زوجة نابليون الثالث منذ أكثر من مئة عام.

بدأ العمل في بناء الكنيسة في التاسع من نيسان١٨٦٦ ؛تكون مركزاً للآباء الدومينكان ، وتم افتتاحها العام ١٨٧٣، أما برج الساعة فقد اكتمل بناؤه عام ١٨٨٢.

تحكي الأسطورة أن ثعباناً كبيراً عمره مائة عام يعيش بين مسننات الساعة يتحرك مرة كل عام، فتتوقف الساعة لثوانٍ قليلة ثم تعود إلى العمل ما إن يعود الثعبان إلى مكانه.

انعطفنا يساراً إلى شارع نينوى، ولا تزال ذكريات زيارتي السابقة إلى ذلك الشارع تعبث في مخيلتي وطيف الفتى المعوق يمشي على أربع يمنع عقلي وحواسي من الاندماج مع حيوية المكان . كان كل شيء في شارع "السرجخانة" ينبض بالحياة، المحال التجارية الباعة المتجولون.. وأصحاب البسطات، لكن ذكريات زيارتي الأولى إلى الشارع لاتزال تستيقظ كلما مررت به.

كان يوسف يحكم قبضته على ثوب أمي ضاماً وجهه إليها بكل قوته، فالزحام والوجوه الكثيرة والأصوات المتداخلة للباعة والمارة وضجيج السيارات، كل هذه الأشياء كانت مرهقة لحواسه المرهفة.

وصلنا إلى عيادة الطبيب. البيت العتيق ذاته، جلسنا على الأريكة الخشبية.. أخبرت أمي مساعد الطبيب أن لدينا حجزاً باسم يوسف حيدر.

هز الرجل رأسه بالموافقة. رفع بعد دقائق قليلة أذان العصر، فغادر المساعد غرفة الانتظار، وعاد بعدها برفقة الطبيب... يبدو أنهما يرتادان المسجد ذاته .

كان مرأى المصلين والمتدينين يشعرني بالطمأنينة، فمنذ الصغر كانت الصلاة والدعاء وكل ما يتعلق بعلاقتي بملكوت السماء يذكرني بجدتي، حين أمرض كانت ترقيني، وكل صباح تقرأ أدعية التحصين وتنفخ في كفيها وتمسح على رأسي .هكذا صار الله عندي يعني إحساساً بالأمان كالذي أستشعره قرب جدتي .

دخل الطبيب إلى غرفة الفحص وبعد دقائق قليلة رن جرس ما، فنادى المساعد يوسف حيدر حملت أمي يوسف وتبعتها إلى غرفة الطبيب

.عبثاً حاولت أمي أن تقنع يوسف لينظر إلى الطبيب أو يسمح له بالنظر إلى وجهه أو لمسه، فبدأت بسرد القصة...

- دكتور هذا ابني ولد في المستشفى ولادة طبيعية، صحته كانت جيدة حتى...

– وماذا به الآن؟ قاطعها الطبيب بنبرة تخلو من أي انطباع.

– أصابته الحصبة، وبعدها تدهورت حالته، فما عاد يتكلم ولا يتفاعل معنا ولا يجيب على من يناديه.

_ أين الفحوصات؟ قال بجفاء .

ناولته أمي رزمة التحاليل والفحوصات، وراح يتصفحها بعناية ويضع الأشعة على العارض الضوئي وينظر إليها ،ثم شرع بعدها بالكلام :

- الحصبة تترك أثراً على العُصيبات والخلايا العصبية، إنها حالة تخلف عقلي ناتجة عن تلف خلايا الدماغ.

_ لكن، يا دكتور، المصاب بالتخلف العقلي لا يخاف، لا يقدر قيمة المخاطر ويتواصل بصرياً، ابني يخاف جداً، وقد فقد القدرة على التواصل، أشك أنه يعاني من اضطراب توحد الطفولة.

قطب الطبيب جبينه مصطنعاً الاستعلاء.

- ماذا تعملين؟ هل أنت طبيبة! سأل الطبيب في سخرية.

- لا أنا خريجة علم نفس وقد قرأت عن الموضوع.

_ عزيزتي، لا تسمحي للكتب أن تعبث بخيالك، أي توحد! أنا لم أسمع بهذا المرض! ولا تتدخلي في عمل غيرك.

_ اسمعني، دكتور، هذا اضطراب عقلي ذهني يفقد المريض به القدرة على التواصل مع البيئة المحيطة

لم يجب الطبيب، و تناول وصفة طبية مذيلة بختم مطبعة حيدر، وكتب حروفاً غير مفهومة، يبدو أنها أسماء أدوية

غادرنا عيادة الطبيب كما دخلنا، لا جديد، لم يضف الطبيب النوراني الوجه إلى سمائنا أي بارقة أمل. كانت أمي تتصرف بعصبية، كورت وصفة الطبيب، ورمتها في أول سلة قمامة صادفتنا، ثم أشارت إلى أقرب سيارة أجرة...

- شارع الفاروق "يم الدرايج". قالت أمي للسائق.

ركبنا سيارة الأجرة، يوسف ينام كملاك فقد كان يومه طويلاً ومتعباً نزلنا من السيارة كانت أمي تحث الخطى بشكل ملحوظ.. كانت مسرعة جداً، وكنت ألهث محاولاً اللحاق بها وبصعوبة استطعت مجاراتها؛ كانت خطواتها السريعة طريقة من طرق تعبيرها عن الإحباط المشوب بالغضب.

وصلنا إلى البيت، كانت جدتي كعادتها تنتظرنا، ومسبحة الكهرمان بيدها. وضعت أمي يوسف في سريره.. وعادت إلى الإيوان حيث نجلس أنا وجدتي التي كانت تنظر إليها منتظرة شروعها في الكلام، بينما عينا أمي تشيان بالكثير الكثير من الوجع.

وأخيراً تكلمت أمي :

- لا فائدة، الطبيب لا يملك أدنى فكرة عما أتحدث عنه.

_ الله كريم ابنتي، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ الشعراء: ٨٠

،أجابت جدتي لم تنبس أمي بكلمة بينما تكفلت ملامح الحزن على وجهها بالبوح بكل ما لا يمكن قوله.

غيرت ثيابي، كنت أشعر بالحزن والإحباط والخيبة، وضياع الأمل.

نزلت إلى السرداب، أردت فقط أن أكون وحدي،آلمني منظر يوسف وخوفه من العالم الخارجي، وكما أنا دوماً تكفل عقلي بنسج ما تبقى من القصة... كيف سيعيش يوسف مع كل هذه المخاوف، هل سيظل متمسكاً بتلابيب أمي إلى الأبد؟ وكيف سيذهب إلى المدرسة وهل سيلعب مع الأطفال، وماذا لو آذوه أو تنمروا عليه؟ وماذا.. وماذا وكيف... وكيف؟

قطع سلسلة هواجسي صوت باب السرداب يفتح لتطل جدتي فتهبط الدرج وتجلس إلى جواري، وتضمني إلى صدرها فأجهش بالبكاء، بكيت كما لم أبكِ يوم غاب أبي، وكما لم أبكِ من قبل، ربتت جدتي على كتفي ومسحت دموعي بطرف شالها، وقالت :

- بُني، أيوب، لا تحزن، فالحزن يؤذي قلوب الصغار.
- آه يا جدتي لو أنك رأيت منظر يوسف وهو يرتعد خوفاً من كل شيء، من الناس من السيارات... إنه حتى لم يبرح حضن أمي حين حاول أبي حمله.
- نحن لا نملك رفاهية الاختيار يا بني... خيارنا الوحيد هو الرضا بما كتب الله والصبر على الابتلاء.
- لكن، كيف سيكبر؟ كيف سيعيش بين الناس؟
- له الله. الله يتكفل بأمره وأمرنا، انهض يا قرة عيني، واغسل وجهك وفوض أمرك إلى الله، الله الذي رعى يونس في بطن الحوت سيرعاه.

اغتسلت وآويت إلى فراشي، وغططت في نومي سريعاً،لا أدري هل لأنني كنت منهكاً أم أن كلمات جدتي هدهدتني ؟

نوبات الصراخ

في صباح اليوم التالي، استيقظت على صراخ يوسف... صراخ مستمر ومن دون انقطاع .

كنا لا نزال ننام في السرداب، أجفلت من نومي لأجد يوسف واقفاً على رؤوس أصابعه، يبكي ويشهق والدموع في عينيه، وأمي تقف إلى جواره تحاول تهدئته بينما يقف متصلباً رافضاً أي تواصل. تقترب منه جدتي، وتجلس على الأرض قريباً منه وتبدأ بالترتيل :

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه: ١ - ٥

تفعل تراتيل جدتي في يوسف ما يفعله الماء في الجمر... يهدأ الصغير ويقترب منها تضمه إلى صدرها بينما الآيات تتدفق من فمها تشير إلى الوسادة ناظرة إليَّ، بمعنى أعطني وسادة فأسرعت إليها بها ،فتمد ساقيها وتضع الوسادة على قدميها لتكون ساقا الجدة مهداً ليوسف. وتسند رأسه الجميل إلى الوسادة وتحرك قدميها تارة اليسرى، واليمنى تارة أخرى... بينما تسترسل في ترتيلها.

وحين وصلت إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦﴾ طه: ٢٥ - ٢٦

كان يوسف قد نام أخيراً.

كان يوم جمعة، لا عمل في المطبعة، تناول أبي فطوره على عجل، وخرج إلى حيث تجري أعمال بناء بيتنا الجديد. كان عليه الإشراف على العمل خطوة بخطوة تمهيداً لانتقالنا إليه بداية الصيف المقبل.

استيقظ يوسف بعد ساعتين، كان في وضع أفضل مما كان عليه فجراً، لكنه رفض أي طعام أو شراب، حتى الماء لم يزر جوفه، وانزوى في ركن قصي في ظل شجرة الليمون يدوّر منديلاً ورقياً بين أصابعه مراراً وتكراراً.

مضت ساعات الصباح... فإذا بطرق على الباب. فتحت الباب فكانت السيدة نجاة .سألتني :

- "السيدية "موجودة؟
- نعم تفضلي.

دخلت الجارة وجلست بينما أمي وجدتي تعملان على إعداد الغداء التقليدي لكل يوم جمعة "الدولمة" العراقية

نفضت جدتي يدها تاركة لف " الدولمة" لأمي، ونهضت تغسل يديها وتسلم على الضيفة وتحييها بحفاوة.

- ماذا به ابنكم، صراخه ملأ المحلة منذ الصباح الباكر
- مريض، أجابت جدتي بجفاء .
- لا بد أن أذنيه تؤلمانه، هذا الصراخ لا يأتي من فراغ.
- يجوز، لقد هدأ الآن الحمد لله.
- والله، يا أم حيدر، لا أعرف كيف تستطيعون العيش في هذا البيت .
- لماذا، يا ابنتي؟

- مسكون يا سيدية، الناس الذين سكنوا هنا قبلكم شُل أبوهم في ظروف غامضة، إنه بيت ملعون كيف تأمنون على أولادكم في بيت العفاريت هذا!

كانت جدتي هادئة بشكل قد يثير غضب محدثها .

المرض ابتلاء من الله، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ التوبة: ٥١

- ، المؤمن يا بنتي لا يخاف من العفاريت؛ والشياطين ليس لهم سلطان على المؤمنين. على العكس هذا البيت سكنه قبلنا منذ سنين رجل عابد. وروحه الطيبة لا تزال تدور في المكان.

_ زادك الله إيماناً يا سيدية، لكن هذه تجربتكم الثانية ألا تذكرين أيوب في صغره كان مخبولاً يمشي ويكلم نفسه.

نهضت من مجلسي وصرت ألوح بسبابتي وقبل أن أنطق بكلمة ،أشارت إليّ جدتي، وهي تضع يدها على فمها بمعنى... اسكتْ ولا كلمة، .صمتُّ طائعاً، وعدت إلى مكاني أستشيط غضباً. والتفتت جدتي إلى الضيفة قائلة :

_ أيوب هذا عبقري، وسيد العاقلين وزينة الشباب، لا يقدر أحدٌ على تقيمه ... حاشاه من الخبل... غداً تكبرين وتهرمين ويعالجك الدكتور أيوب، انتبهي إلى كلامك. تكلمت جدتي بحزم وهدوء،

بينما تعالى صوت أنفاس أمي منذرةً بقرب غضبها الأشبه بانفجار نيزكي ذلك الذي يحدث مرة كل ألف عام.

استلمت جارتنا الرسالة، و تقبلت رد جدتي لأنها كانت تعد لهجمة مرتدة.

- أنتم، يا سيدية، انطوائيون، بابكم مغلق طيلة اليوم لا تزورون أحد، ولا أحد يزوركم، طبعاً الأولاد "يتعقدون".

هنا لم تجب جدتي وتركت كرسيها، وافترشت الأرض قرب أمي، وتناولت ورقة عنب وضعت فيها شيئاً من خلطة الرز واللحم والبصل والثوم، وراحت تلفها كما تلف السجائر، بينما ظلت كلمات الجارة معلقة في الهواء... ورقة عنب أخرى وأخرى، نهضت الجارة مغادرة.

- مع السلامة. قالت جارتنا، ولكن جدتي لم ترد.

وحينما وصلت السيدة إلى القنطرة. أشارت إليّ جدتي، قائلة:

- سد الباب وراها.

وعادت إلى أوراق العنب وتلفها بعناية، وبعد أقل من ساعة فاحت من بيتنا رائحة الدولمة. أخذت جدتي قدر العجين، وارتقت السلالم إلى السطح لتخبز على تنور الطين.

تبعتها لأتابع العملية عن قرب، ولأكشف لها عما يجول في خاطري .

بدأت جدتي بوضع رزمة من الأغصان الجافة في التنور، وصبت عليها بعض النفط، ثم رمتها بعود ثقاب، وابتعدت. أخذت تقطع العجين إلى كرات متساوية الحجم ترصفها في صينية مرشوشة بطبقة من الدقيق.

نظرت إلي باسمة :

- قل ما عندك.
- نجاة المزعجة.

- لا عليك بها، كل إنسان يتحدث بما يمليه عليه عقله ،وهي هذا عقلها.

- صحيح، جدة لماذا ليس لدينا أقارب؟

التفتت جدتي إلى التنور وقد خبت ناره، بللت كفيها بالماء ثم بدأت بمد كرة من العجين بين راحتيها. بحركات انسيابية ومتناسقة، وحين تكتمل استدارة الرغيف بين كفيها تلصقه بباطن التنور ثم تقطع قطعة عجين أخرى وأخرى وهكذا، وحين لا يعود هناك مساحة لمزيد من الأرغفة تغطي فوهة التنور بصينية قديمة خُصصت لهذا الغرض وتعود إلى قدر العجين لتصنع مزيداً من الكرات وترصفها من جديد في صينية الطحين ريثما تنضج الأرغفة فتبدأ بالتقاطها من وسط ألسنة النار الواحد تلو الآخر.

تلتفت إلي، قائلة:

- حبيب جدة أبوك وحيد، وعمتك في بغداد، وأهل أبيك ما يعترفون بينا، وأمك يتيمة و وحيدة.

– كيف يعني لا يعترفون بنا؟

- لا أريد أن أثقل على قلبك الصغير بالمزيد من الهموم، المهم أننا بخير ولسنا في حاجة إلى أحد سوى الله... غداً تكبر وتتزوج و يمتلئ البيت بالصغار فنصبح عائلة كبيرة.

ظللت أراقب جدتي وهي تخبز، وأنا أفكر من هم أهل أبي؟ ولمَ لا يعترفون بنا ؟

نزلنا عن السطح قبل الزوال بقليل كان أبي قد عاد، ويوسف على غير عادته يجلس على حجره .

بادرت جدتي بتحيته :

_الگوة يابة

_الله يگويج يوم.

وضعت جدتي الخبز في وعاء خاص مصنوع من سعف النخيل، وذهبت لتغتسل من عرق التنور على حد تعبيرها.

جلست كعادتي على السلالم، بيني وبين أبي وأمي شجرة الليمون، ولكنني كنت أسمع حوارهما.

_ يجب أن يعتاد على الخروج ورؤية الناس، بالأمس قلقت عليه كثيراً، كان مذعوراً من كل شيء.

سأصحبه معي إلى المكتبة أو المطبعة كلما سنحت الفرصة، وأنت أيضاً خذيه إلى الدكان إلى مزارات الأولياء

- إن شاء الله. قالت أمي بحماس

انضمت جدتي إلى طاولة الحوار، وافقت أبي من دون أن يبدو أنها مقتنعة بجدوى المحاولة.

راحت أمي تشرح لنا حصيلة بحثها بين كتب علم النفس، وكيف أنها تعتقد أن ما يعانيه يوسف ليس خبلاً ولا تأخراً عقلياً، بل هو اضطراب في قدرة الطفل على التواصل مع البيئة، وأنه قد يتمتع بقدرات عقلية خارقة وأن إسحق نيوتن.. وألبرت أينشتاين وتوماس أديسون كلهم كانوا مثله، وأنها مسألة وقت وكل ما نحتاج إليه هو الصبر.

- عندنا منه الكثير... _تعني الصبر_ قالت جدتي.

بعد ذلك تحول مسار الحديث إلى موضوع انتقالنا إلى البيت الجديد قال أبي إن البيت يوشك أن يكون جاهزاً. وحالما تقفل المدارس أبوابها سنكون في بيتنا .

- هل ستبيع هذا البيت؟ سألت أمي .
- لا، سأرممه وأقفله، فلنا فيه ذكريات جميلة. كما أننا لن نحمل من أثاثه شيئاً عدا ثيابنا وبعض مقتنياتنا. كل شيء سيبقى في مكانه.

كنت أنتظر انفضاض مجلس الأسرة المنعقد بنفاد صبر، أريد أن أنفرد بأمي لسؤالها، عن أهل أبي وما قصتهم ؟

في هذه الأثناء نام يوسف في حضن أبي، فحملته أمي إلى سريره لا أدري هل انتبه أحد إلى أن الطفل صائم بلا زاد ولا ماء

مدت جدتي مفرش الطعام على الأرض، وأحضرت صينية كبيرة ولحقت بها أمي تحمل قدر الدولمة. تناولته جدتي وبحركة احترافية قلبت القدر في الصينية، فتداعت حبات البصل والقرع والفلفل الحلو والباذنجان المحشوة بخلطة الرز واللحم والبصل والثوم والبهارات، كانت حبات الخضار المحشوة ولفافات ورق العنب الملفوف بعناية تلمع في ضوء الشمس بينما البخار يتصاعد، والرائحة تداعب الأنوف، صورة صينية الدولمة وخبز التنور و دورق شنينة لبن الغنم، كانت هذه هي الصورة النمطية لغداء عائلة موصلية في يوم العطلة .

تحلقنا حوال السفرة، ولا أدري هل كنا قد لمسنا الطعام أم لا، حين شق الصمت صوت صراخ يوسف صرخة كتلك التي أيقظتنا فجر اليوم ذاته، ركضت أمي وجاءت به تحمله، وتحاول بكل ما تستطيع

أن تهدئ من روعه بالعناق تارة، والغناء والتغنيج تارة أخرى... رفض الطفل كل المحاولات واستمر صراخه .

علا وجه أبي شيء من القلق وقال :

– أعطيه لأمي ...

وعلى الفور رفعت جدتي ذراعيها لتتناوله، فركضت من دون أن تطلب جدتي، وأحضرت وسادة أعادت جدتي ما فعلت صباحاً، لكنها هذه المرة كانت ترتل:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ يوسف: ١ - ٣

وهكذا كانت تراتيل جدتي تقع في يوسف كموقع السحر في القصص الخيالية.

هدأ، وبدأت جدتي تطعمه، كانت تصغ في فمه حبة رز ،وتنتظر حتى يبتلعها ثم أخرى وأخرى، لم يتجاوز مجموع ما أكله طعام عصفور.

ظل بعدها مستلقياً على ساقي جدتي تهزه يمنة ويسرى، حتى أتممنا غداءنا.

ورفعت السفرة وجيء بالشاي.

لحقت بأمي التي كانت تغسل الأواني في القنطرة.

- ماما!
- ها بعد ماما.
- عندي كلام معك، لكن ليس الآن...

- حاضر، و غمزتني أمي وابتسامة تآمرية تعبر وجهها.

لا أدري متى سنحت لي فرصة لسؤال أمي عن أهل أبي، لكنني عرفت القصة كاملة من أبي نفسه فيما بعد.

قطيعة وخلافات

ينحدر أبي من عائلة عراقية موصلية عريقة يعود أصلها إلى منطقة تقع على ضفاف دجلة جنوب تركيا. كانوا يشكلون طبقة من النبلاء في كثير من مدن السلطنة العثمانية، وسيطروا فترة طويلة على مقاليد الحكم على العديد من ولايات السلطنة العثمانية .

غضب جدُ أبي حين أراد جدي الاقتران بجدتي التي كانت تنتمي إلى ملة مختلفة ويقطن أهلها مدينة بعيدة ،ولا تحمل عروقها دماء زرقاء حسب اعتقاده، رغم أنها كانت سليلة السادة الأطهار أهل بيت رسول الله ، وأبوها من كبار تجار مدينته وسيد بين قومه، ظل جدي مصراً على رغبته، فكانت النتيجة هي القطيعة والحرمان من الميراث وكل امتيازات لقب العائلة. أما البيت العتيق فقد وهبته عمة جدي له قبل وفاتها.

رحل جدي عن الدنيا باكراً، بُعيد ولادة عمتي بأشهر قليلة، رفضت جدتي أي مساعدة من أهل أبي .كما رفضت الارتحال إلى ديار أهلها متعللة بأنها لا تريد لأبي أن يكبر في الغربة...(أي غربة يا جدتي أكبر من غربة عاشها وسط أهله) وكانت تسد متطلبات المعيشة ومصاريف دراسة أبي من عملها كخياطة، ومن معونات يرسلها لها أعمامها من النجف.

كبر أبي وحاول أهل أبيه ضمه؛ ولكن ليكون ابناً من الدرجة الثانية، ففي أحد مجالس العزاء المقامة لوفاة أحد أعمام والدي كان أبي حاضراً هناك كفرد من أفراد الأسرة حسب ما كان يعتقد حينها، وحين سأله أحد الحضور، ابن من أنت فقال: أنا ابن عبد الله.

فسأل الرجل المسن:

- ابن الشروگية؟

وهنا انتفض أبي وثار بوجهه.

- أمي أكرم أصلاً منك، و من عشيرتك التي أنجبتك.

وهكذا قطعت آخر حبال الوصل بيننا وبين أهل أبي .

ورغم وجوده في وسط المدينة، حيث يوجد معظم أبناء العائلة في سوق العمل كتجار أو صاغة أو مُلّاك عقارات، كان يتحاشى التقرب من أي منهم. وحتى كراهيته للرأسمالية وجنوحه إلى الأفكار الاشتراكية، في مقتبل شبابه لم تكن إلا رد فعل لنقمته على أهل نبذوه وهضموا حقه وحق أخته. واحتقروا أمه رغم كونها تستحق كل الاحترام نسباً وفعلاً وخُلُقاً .

وحين ذهب أبي لخطبة أمي، ذهب وحده كأي غصن مقطوع من شجرة، ولأن أمي تنحدر أصول ريفية، وفي الريف يسود النظام القبلي سأله خال أمي :

_ من أي العمام؟

_ ما عندي عمام.

_ كيف، يا بني هل خرجت من شرخ في حائط؟

فقص عليه أبي القصة بالكامل...

فلم يعارض زواجهما.

هكذا تكونت أنا أيوب وأخي يوسف وأختي زينب فيما بعد من مزيج عجيب في وطن أعجب ؛ إلى أي الفرق أنتمي!... أظنني أنتمي إلى الأرض... إلى "الدرابين" المكتظة بقاطنيها، إلى صيحات الصبية المتراكضين خلف كرة صنعت من جوارب قديمة ، إلى الجدران المائلة إلى شارع الفاروق الذي يئن تحت ثقل التاريخ، إلى المئذنة الحدباء إلى كنيسة الساعة، إلى دجلة وحجارة الشط. إلى أسوار المدينة وأبوابها الاثني عشر، إلى أمي وأبي وجدتي ويوسف وزينب، إلى شجرة الليمون العجوز.

نزهات يوسف

بدأنا وعلى الفور بتنفيذ ما أملاه علينا أبي فيما يتعلق باصطحاب يوسف يومياً في نزهات، فبعد خروج أبي إلى المطبعة عصر الجمعة خرجنا في نزهة إلى مرقد الشيخ؛ أبي محمد الفتح بن سعيد الكاري الموصلي.

حملت أمي يوسف ومشينا أنا وجدتي إلى جوارها، دخلنا المرقد وكانت أرض الفناء تنحدر نحو الغرفة حيث يوجد الضريح، نزلنا بضع درجات إلى غرفة منخفضة يقع فيها الضريح الخشبي الذي يضم الرفاة تعلوه قبة أثرية مضلعة...

صلت جدتي سابلة ذراعيها، ووقفت أمي حذوها وصلت عاقدة ذراعيها، بينما أنا ألاعب يوسف وأدور به حول المقام. جلسنا في

فناء المزار حتى غابت الشمس. توقف يوسف عن التشبث بأمي وصار يتلفت هنا وهناك ويتطلع إلى المكان .

صحبنا أبي ذات يوم إلى المكتبة، كنا أنا ويوسف وأبي نمشي ،ولم يعد يوسف يحتاج إلى من يحمله، فقد صرنا نكتفي بالإمساك بيده بينما يمشي إلى جوارنا.

توالت النزهات والزيارات والجولات، وبعد شهر من المشاوير أتت خطة تأهيل يوسف أولى أُكلها. فقد أقلع عن الصراخ، وعن عادة تدوير الأشياء، وصار أكثر تعلقاً بأبي.

ولكن لا كلمات ولا نظر في الوجوه ولا أية علامة تدل على تحسن التركيز.

استبشرنا خيراً... حتى حصل، ما حصل .

يوسف ضائع

أديت امتحاني النهائي للغة العربية، و كانت المرة الأولى التي أؤدي فيها امتحاناً تحريرياً مكتوباً، أكملت امتحاني ووقفت بعدها مع مريم نناقش حلول الأسئلة.

انصرفت بعدها عائداً في طريقي إلى البيت، هممت أن أطرق الباب فوجدته مفتوحاً.

_ عجيب! قلت في نفسي لكنني لم أطل التفكير بهذا التفصيل.

دخلت فوجدت أمي وجدتي جالستين في الحوش وكل شيء على ما يرام.

– نائم في السرداب، هكذا أجابت أمي حين سألت عن يوسف

بدلت ثيابي، اغتسلت، وجلست أتأمل، وأفكر كما هو دأبي.

لا أدري كم مضى من الوقت حين قررت النزول إلى السرداب، نهضت من مجلسي، ونزلت بهدوء ثلاثة سلالم ثم الباب، أمسكت المقبض ودفعت الباب بروية كيلا ينزعج الصغير في نومه، و أخيراً، وصلت قعر السرداب ولا أثر ليوسف، فراشه فارغ .

قفزت الدرجات التسع قفزاً.

- يوسف ليس في السرداب... قلت بنفس متقطع.

غاب الدم من وجه أمي.

- متأكد! سألت جدتي، لكنها لم تنتظر إجابة، نزلت إلى السرداب لتتأكد بنفسها بينما صعدت أنا إلى السطح و فتشت كل زاوية من زواياه ،بحثت عنه في كل مكان حتى في تنور الخبز، ولكن لا أثر . نزلت إلى الفناء

لأجد أمي وجدتي تدوران في دوائر مفرغة، لا تعرفان ما العمل.

- أمي، أنا حين وصلت من المدرسة كان باب البيت مفتوحاً، سأذهب لأخبر أبي ... أنتما فتشا في المحلة، واطلبا مساعدة الجيران. هكذا قلت.

خرجت بثياب النوم كما لم أفعل من قبل، أركض بين الأزقة، ولا أدري كيف وصلت إلى المكتبة.

- بابا، يوسف ماكو!

أحسست أن عيني أبي ستخرجان من محجريهما لفرط ما أجفله القول.

خرج معي على عجالة، من دون إعطاء علي أي ملاحظة.

بسرعة أشار إلى أقرب تكسي.

حملتنا سيارة الأجرة بينما عيناي تحاولان ابتلاع كل شاردة وواردة على ضفتي الطريق لعلّي أجدُ ريحَ يوسف.

صعدنا الدرجات المفضية إلى المحلة.

الجميع في هرج ومرج، الصبية... الفتيات العجائز.. ،الكل يبحث... الكل يدور حول نفسه... والكل ينادي. يوسف ... يوسف.

حبست دموعي، فلو أنه يستجيب إلى نداء اسمه لما خفنا عليه، وكُنّا الآن نجلس في ظل شجرة الليمون ننتظر عودته، المصيبة أنه لا يجيب ولا يستجيب، وإن سألته من هو وما اسمه فلن يرد جواباً.

حين وصلنا إلى البيت، كانت أمي منطوية على نفسها تميل تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف في ردة فعل هستيرية على ما يحدث

- ماذا كان يلبس؟ سألها أبي

وحينما لم يتلقّ جواباً، قال بنفاد صبر:

- شمس، رجاء هذا ليس الوقت المناسب للانهيار.
- قميصاً أحمر و بيجامة زرقاء... أجابت جدتي

خرجت مع أبي و توجهنا إلى مركز الشرطة

اختصر أبي المقال، ووصف يوسف لرجال الشرطة على أنه من الصم والبكم، لا يسمع ولا يتكلم رغم أنه ليس كذلك لكن ماذا عساه يقول ؟ هل كان سيقول إنه مصاب باضطراب ذهني حير العلماء.

_عمليٌ أنت يا أبي! قلت لنفسي.

عدنا أدراجنا إلى المحلة، وهنا باشر أبي بنفسه عملية التفتيش. فتشنا كل زاوية وكل شبر، وبعدها اتجهنا إلى مدرسة أمي حيث صحبته بضع مرات في الشهور الأخيرة؛ استأذنا الحارس وبعد شرح مفصل لملابسات الوضع سمح لنا، فتشنا المدرسة بالكامل ولا أثر ليوسف.

كانت الشمس قد غابت حين سلكنا طريق العودة إلى البيت، التقينا علي؛ عامل المطبعة الجديد فانضم إلينا في بحثنا.

جُبنا الأزقة و"الدرابين" وأبي يحمل فانوساً، والعرق يتفصد من جبينه، حتى البيوت الخربة جالها بيتاً بيتاً، ولما ييأس. عدنا إلى البيت، جلس أبي على كرسيه وضم وجهه بين كفيه، وأطلق العنان لعبراته، لم يكن يبكي بل كان ينتحب، اقتربت جدتي وضمت رأسه إلى صدرها ومدامعها تنهمر.

- يمة يوسف... تمتم أبي ثم اختنق صوته...

جلت البيت بناظري بحثاً عن أمي، لم أجد لها أثراً، انتابني شيء من القلق بشأنها، وتبادر إلى ذهني أنها في السرداب، وفعلاً وجدتها هناك صامتة، واجمة تجوب السرداب جيئة وذهاباً.

جلست على أريكة طفولتي الأولى والفكر يعبث بي، ترى أين أنت الآن يا يوسف؟ عجز عقلي هذه المرة عن نسج القصص. كنت فقط أتخيله يمشي ويمشي في درابين معتمة

- أيوب. نادى أبي فلبيت مسرعاً.
- هيا معي بسرعة...
- إلى أين؟ قالت الجدة.

_ وجدت يوسف بإذن الله. قال أبي

ذهلت جدتي كيف وجده ومتى!

غادرنا البيت، كان أبي يركض أكثر مما يمشي وأنا أركض خلفه شققنا "الدرابين " و العوجات كالريح، وإذا بنا أمام مسجد الشيخ فتحي كان الباب مغلقاً... طرق أبي الباب طرقاً خفيفاً في البدء، وحين لم يتلق جواباً بدأ بركل الباب. خاطبنا القيِّم على المسجد من وراء الباب...

_من هناك؟

_ افتح الباب طفل ضائع، ونريد البحث عنه افتح أرجوك.

تردد الحارس في فتح الباب، فالوقت كان متأخراً حينها ،ولكنه أخيراً استجاب إلى توسلات أبي.

دخل أبي مسرعاً فتش فناء المزار صعد السلالم صوب البئر، وجه ضوء الفانوس داخل البئر مخافة أن يكون قد سقط فيه، ثم تنفس

الصعداء حين لم يجده هناك، كاد اليأس يتسرب إليه، خطر في بالي أن أدخل إلى الصحن دفعت باب الصحن، ودخلت إلى حيث الضريح، حاول الحارس منعي ولكن أبي أوقفه ، دخلت و درت حول المقام فإذا بيوسف متكور على نفسه؛ نائم في المساحة الضيقة بين جدار الغرفة وقبر الشيخ فتحي الموصلي...

كاد قلبي يقفز من مكاني لشدة فرحتي ولرهبة الموقف ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الأعراف: ٥٦

،لاذ الصغير الخائف المغيب عما حوله بمحراب رجل عابد عاش هنا منذ مئات السنين.

حمل أبي يوسف بهدوء؛ مخافة أن يجفله. أخذناه إلى البيت نمشي بهدوء، وحينما وصلنا كانت كل من جدتي وأمي واقفتين بالباب، شهقت أمي حينما رأت يوسف بين يدي أبي ورددت جدتي:

– قربانك ربي .

أخذت أمي يوسف ووضعته في فراشه .

كان هناك شيء من البرود في التعامل بين والديَّ، لم تستطع أمي النظر في عينيه . كان يعذبها إحساسها بالذنب ونحو يوسف وأبي بالذات.

ظلت غيوم حادث ضياع يوسف تلبد سماء عائلتنا لفترة طويلة، كانت أمي تعاقب نفسها على كل لحظة مرت على بيتنا في غياب يوسف .

انقضت الليلة التي كان بالإمكان أن تكون أسوأ ذكرياتنا. انتهت بذكرى جميلة ذكرى عودة يوسف بأمان من دون أدنى أذى. يبدو أن يوسف أمضى يومه في فناء المزار، ولما جنّ عليه الليل لاذ بالمحراب.

هدية لمريم

أشرقت الشمس، واستيقظ العالم من حولي، لم أفتح كتاباً أمس. بدلت ثيابي وخرجت إلى الفناء لأجد جدتي وقد أعدت الفطور، عانقتها وكأنني لم أرها منذ أمد، كان عناقي لها يعني أنني هنا بسلام معك يا نانا.

وصلت المدرسة قبل انطلاق الامتحان بدقائق، وقفت في باب الصف مع مجموعة من التلاميذ، كانت يمامة من بينهم، انضممت إلى جمع الصبية، ومعظمهم من أبناء المحلة فبادر أحدهم إلى سؤالي :

_ هل رجع أخوك ؟

_ نعم وجدناه في مسجد الشيخ فتحي .

سرت أجواء احتفالية بين أصدقائي.

بينما كانت يمامة تقف بين جمع الفتيات التالي لنا، كانت تسترق النظر إليّ.

- ماذا تريد صغيرة الدبوس؟ تساءلت في نفسي.

دخلت الامتحان، كنت أؤدي امتحاني بسلاسة فالحساب والرياضيات كانا لعبتي، أنهيت الامتحان في أقل من نصف ساعة، وجلست ربع ساعة هكذا أتأمل وأضيع الوقت، تنفيذاً لتوصية جدتي :

- لا تكن أول من يغادر قاعة الامتحان بنيّ، هكذا كانت تقول، ربما لغاية في نفس يعقوب.

وما إن سلّمت تلميذتان ورقتي امتحانهما ،حتى حملت مقلمتي ونهضت هامّاً بالمغادرة، لحقت يمامة بي، لمحتها بطرف عيني، وما إن وقفت جانباً كعادتي بانتظار خروج مريم حتى انضمت إليّ .

- أيوب ؟
- نعم .
- صحيح لديكم مطبعة ؟
- بالتأكيد. قلتها باستعلاء.
- ماما تقول إنكم ستنتقلون إلى حي راق ؟

لم أجبها، فتابعت القول:

- لكن ليس لديكم سيارة...
- غبية قلت في نفسي.
- سنشتري دراجة هوائية عن قريب. قلت هازئاً، وحالما ابتعدت ، ظهرت مريم

كانت مريم تجيد الإنصات، سردت لها القصة بالكامل، وقد هزمتني دموعي في بعض مواقع السرد .

غادرنا المدرسة ومشى كلٌ في طريقه.

عند عودتي إلى البيت، كان الباب مقفلاً بالمفتاح من الداخل، وأبي نائماً في غرفته، والهدوء يعم المكان. أحسست أن ثقلاً قد انزاح عني وكل شيء قد أخذ مساره الطبيعي.

علمت بعدها من أبي أننا سننتقل إلى بيتنا الجديد في أول أيام العطلة. لم يؤلمني إحساسي بأنني سأهجر مهد طفولتي، لأُغرس في أرض جديدة بمقدار ما آلمني مجرد التفكير في أنني لن أرى مريم كما اعتدت أن أراها وأنا هنا.

كنت طفلاً لا أفقه معنى تعلقي بمريم. هل كانت مريم حب طفولتي، كما كان بعضهم يعتقد؟ كان إحساسي نحوها يلخص إحساسي بكل الموجودات في الحي القديم، كانت تشبه القباب والمآذن، مقامات الأنبياء والصالحين .وكل الدرابين الضيقة التي عبرناها معاً في مرح طفولي بريء . كانت تشبهني، وماء النهر ذاته يجري في عروقنا نحن الاثنين.

ذهبت مساء ذلك اليوم إلى المكتبة، وأحضرت كتاباً لمريم. وأرفقت الكتاب ببطاقة تحمل صورة وردتين على غصن .

غلّف علي الهدية بورق ملون، وأوصاني ألا أحمل لها الهدية إلى المدرسة، وإلا دخلت في سين وجيم، وهذا قد يسيء إلى سمعة البنت.

- أي سمعة يا علي و نحن لا نزال أطفالاً.
- اسمع كلامي ... لم يعد هناك أطفال. ثم إنك في الثانية عشر من عمرك والبنت في الحادية عشر، يعني لستما في الروضة.
- حاضر، يا سيدي. قلت متذمراً .

وصلت البيت، خبأت الطرد في دولاب جدتي، ونزلت إلى السرداب أبحث بين حاجاتي عن شيء لأقدمه لمريم، فوجدت حبة عقيق قديمة، لا أذكر من أين كنت قد حصلت عليها، ثم

فككت مقبض أحد الدواليب، كانت على شكل زهرة لوتس مصنوعة من الكريستال، رقيقة وشفافة وجميلة ونادرة لا يشبهها شيء بالضبط كمريم، أخذتهما و وضعتهما في مقلمتي.

حين أخبرت أمي بأمر الكتاب وبطاقة المعايدة اقترحت أن تقدم هي الهدية لمريم باسمها وليس باسمي منعاً من إحراج الفتاة... مبررة اقتراحها بأن مجتمعنا لا يعترف بالصداقات البريئة بين الصبية والفتيات. ربطت فكرة أمي بما قاله علي، فوافقتُها من دون جدال.

أديت الامتحان الأخير شفوياً، كان امتحان النشيد والموسيقى أنشدت أنشودتي من دون موسيقى. كانت أنشودة وطنية ، لم أعد أذكر كلماتها تماماً. كانت تتكلم عن رؤوس الرماح التي تلمع في أعلى قمم الجبال منذرة بقرع طبول الحرب، وتحث الفتية على الانخراط في القتال.

خرجت بعدها، إلى الباحة حيث تنتظرني أمي، انتظرنا لوقت طويل، فاسم مريم يقبع تقريباً في ذيل قائمة الأسماء.

خرجت مريم وتوجهت نحونا وفي عينيها ابتسامة خجل واضحة اقتربت وألقت التحية :

_ مرحبا ست... همست بصوت لا يكاد يُسمع، وقد توردت وجنتاها.

استأذنت للمغادرة بعدها مباشرة، لكن أمي استوقفتها. ومشينا معاً حتى الباب. حين صرنا خارج المدرسة فتحت أمي الحقيبة وأخرجت الطرد وقالت :

_هذه هدية بسيطة منا لتبقى تذكاراً تتذكريننا به.

_التفتت إلي مريم كمن تطلب تفسيراً، فوضعت يدي على صدري في إشارة إلى أن الهدية مني.

اغرورقت عينا مريم بالدموع ولم تستطع الكلام. ناولتها أمي الكتاب، وأخبرتها أنه آخر يوم لي هنا في الحي القديم،ودعتنا مريم والدموع تملأ عينيها.

شعرت أن الكثير من الكلمات بقيت عالقة في حنجرة الفتاة...

تذكرت بعد ثوان قليلة أمر زهرة الكريستال وحبة العقيق فركضت خلفها أنادي مريم.... مريم

تناولتهما مني، كان خداها مبتلين بالدموع.

ودعتها من جديد ولحقت بأمي،

لم تنطق أمي طوال الطريق أحسست أن ألف سؤال وسؤال يدور في عقلها. من مريم بالنسبة إلى أيوب؟ ومن أيوب بالنسبة إلى مريم، وهل تولد المشاعر في عمر مبكر كهذا أم أن أيوب هذا أكبر مما يبدو عليه؟

إن ما كان يربطني بمريم لم يكن شيئاً غريزياً، أو عاطفة فتى نحو فتاة، أو مراهقة مبكرة كما ظن علي، وكما تساءلت أمي، مريم كانت بالنسبة إليّ ثورة، ثورة كامنة في داخلي ضد قيم المجتمع المتوارثة، ضد ذكورة المجتمع، وسيادة الرجل، ضد الطبقية، ضد ازدراء الفرد المختلف، مريم كانت نصباً يسكن وجداني يحمل كل القيم والمعاني المفقودة في كل ما حولي، مريم كانت تتمة عالمي المثالي المكون من أمي وأبي ويوسف وجدتي، كانت تشبهنا وبها تكتمل صورتنا.

لم نعرف الحب وقتها، ولا دقات القلب المتسارعة عند كل لقاء

ربما عشناه فيما بعد، لكننا في ذلك الحين كنا مجرد أطفال، ولدوا كباراً، عانوا من موروث مجتمعي غير منصف.

مريم

أما أنا فمريم، جئت إلى هذا العالم في صباح الرابع عشر من شباط من عام ١٩٧١ ،وبعد مخاض عسير دام يوماً وليلتين، اتضح ألا رجاء في ولادة طبيعية، فأدخلت أمي إلى صالة العمليات على جناح السرعة لإجراء قيصرية طارئة، يبدو أنني كنت أرفض مغادرة ظلمات عالمي الثلاث إلى عالم الأضواء خاصتكم.

بكت أمي حين علمت أن المولود فتاة، لأنها كانت تعتقد أن البنات نصيب المظلومات، ولأنها كانت تتمنى أن تنجب صبياً يلعب مع أخي الذي يكبرني بعامين، لا أدري لماذا لا يمكن أن ألعب أنا معه، ولماذا كان الجميع يقول إنه وحيد العائلة؟ كيف يكون وحيد العائلة، وأنا هنا أم أنني غير مرئية؟

بعد أن تعافت أمي أخبرتها الطبيبة أن هناك خطراً كبيراً على حياتها في حال أنجبت طفلاً آخر، فثمة تمزقات في جدار الرحم، قد تهدد حياتها في حال حدث حمل.

لقد سمعت هذه القصة مراراً، من أمي التي كانت تسميني طائر الشؤم، لأنني قطعت نسل العائلة من وجهة نظرها.

هكذا وعلى قصص كهذه تربيت مع أخي الوحيد أو بالأحرى وحيد العائلة، فأنا في نظر أمي، لا أخضع للتعداد.

عشت مع أبي وأخي خمس سنوات، رحلا بعدها بطريقة مأساوية سأقصها عليكم حين يأتي وقتها.

كان أبي رجلاً عسكرياً؛ ضابطاً في طيران الجيش ولا تزال صورته ببزته "الخاكي"، تزين كتفيه النجوم وتزين صدره النياشين والأوسمة معلقة في صالة البيت، لم نكن نراه كثيراً، كان ينزل بيننا كضيف عابر يمكث أسبوعاً من كل شهر، كان أبي يحبني، ولكنه للأسف كان ضعيفاً أمام جبروت أمي، التي تعتقد أن تدليل الفتاة مضيعة للوقت، فعلام تزرع إن كان غيرك سيحصد؟ هذه كانت وجهة نظرها.

في طفولتي الأولى كان علي أن أتخلى عن الكرسي القريب من المدفأة شتاء، ليجلس أخي، وفي الصيف كان يجب أن يكون هو الأقرب إلى المروحة، وفي المناسبات كان لا بد له من أن يحصل على قطعة الحلوى الأكبر، وفي عيد مولدي كانت أمي تصر على أن يقطع أحمد قالب الحلوى بدلاً مني لأنه وحيد الأسرة وولي العهد، أحمد أولاً ثم مريم، لأنني ببساطة أنا من حرمته من أن يكون له أخوة آخرون يساندونه ويعاضدونه، لأنني حين خرجت من بطن أمي مزقت رحمها كيلا تحمل ثانية.

لم أشعر بالغبن في صغري فقد كنت بكل بساطة أظن أن هذا هو ما يجري في كل مكان، وأن هذا ما كان عليّ فعله! كنت أقوم ليجلس أخي بطيب نفس، وأنتقي له قطعة الحلوى الأكبر حجماً، وأناوله إياها بكل رحابة صدر؛ لأنني كنت أرى أن ذلك هو عين الصواب، ما دامت أمي تريد ذلك وأبي لا يعترض.

كان بيتنا واسعاً، يتكون من طابقين بأربع غرف نوم وصالة كبيرة، وغرفة ضيوف ومطبخ فضفاض فيه كل مستلزمات الطهي في ذلك الحين، وحديقة واسعة تحيطها أشجار البرتقال والكمثري، و تتوسطها أرجوحة كبيرة، وورود وأزهار من كل لون ونوع.

وكان لأبي سيارة فيراري موديل ١٩٧٠نستخدمها في أيام إجازاته للمشاوير والنزهات، وزيارات الأقارب، وفي غياب أبي تبقى مركونة في المرآب، كان لدينا خادم وبستاني، وكان الجنود الذين يعملون في المعسكر تحت إمرة أبي يمرون بنا كل يوم لقضاء حاجات البيت أو التسوق أو إيصالنا إلى أي مشوار، حين يتولى الجندي قيادة السيارة، تجلس أمي في المقعد الخلفي وأنفها إلى الأعلى، وتبدأ بإصدار الأوامر بنبرة متعالية. كانت ناريمان صدقي تجيد أداء دور السيدة البرجوازية.

وحين بلغ أحمد السابعة، قرر أبي تحت ضغط من أمي أن يعلمه قيادة السيارة في هذا السن المبكر، بوصفه ولياً للعهد. لا أدري ما الرابط بين قيادة الفيراري وولاية العهد لكن هذا ما حدث.

كان أبي في أيام إجازته يصطحب أخي في السيارة إلى براري المناطق المتاخمة للمدينة، لغرض تعليمه قيادة السيارة، ولا أدري لماذا كان أحمد يرفض أن أذهب معهم! وفي كل مرة كنت أتوسل إليهم أن أذهب معهم يعترض، وحين سألته مرة عن السبب قال:

- لا نريد فتيات غبيات معنا، إنه مشوار خاص بالرجال.

كان أبي يخضع إلى رغبات أحمد مرغماً كيلا تنفتح عليه أبواب الجحيم الناتج عن سخط أمي منه، واتهامه أنه يفضل البنت على الولد...

لا أدري لماذا كان أحمد يزدريني رغم أني لم أكن أشكل أي تهديد لسيادته على بيتنا.

وذات جمعة صادف أن كانت خالتي تزورنا، وحين همَّوا بالخروج قالت خالتي .

- لتذهب مريم معكم.
- حسناً، لتأتي، قالها أبي الذي كان يوقر خالتي ولا يرد لها كلمة.

بان الضيق على وجه أخي، لكنه كان محاصراً هذه المرة، فسكت مرغماً.

وصلنا إلى منطقة مفتوحة، تقع إلى شمال غرب المدينة وغير مأهولة، نزل أبي وأعطى أحمد مكانه خلف عجلة القيادة ، كان أحمد يقود السيارة بمهارة وسلاسة عاليتين؛ بعد حوالي نصف ساعة من القيادة في الأراضي البراح، وحين هممنا بالعودة طلب منه أبي أن يوقف السيارة.

ليتبادلا المواقع، رفض أحمد وتوسل إلى أبي أن يسمح له أن يكمل القيادة حتى البيت ، انساق أبي وراء رغبة أحمد كما هو الحال في كل مرة، عاد بنا أحمد نحو مركز المدينة . وما إن سلكنا الطريق الرئيس حتى ظهر لنا جرار زراعي، خرج فجأة من بين المزارع ومن دون سابق إنذار، وصار يتقدم نحونا بسرعة جنونية، ارتبك أحمد

وبدلاً من أن يضغط المكابح، ضغط دواسة الوقود، وانطلقت سيارتنا بكل ما أوتيت من سرعة لتعانق الجرار بينما يصيح أبي بأحمد :

- بريك، بريك بمعنى المكابح، لكن الأجل لا يخطئ.

لا أدري ماذا حدث بعدها، فقد غبت عن الوعي وفتحت عيني في المستشفى، وقد ربطوا إلى ذراعي محلولاً وريدياً وعصبوا رأسي، كانت خالتي جالسة إلى جواري والحزن يلفها، بينما يصلني صوت نواح وعويل قادم من خارج غرفة الطوارئ حيث أرقد.

علمت فيما بعد أن كل من أبي وأخي قضيا في الحادث. عدت إلى البيت بعد يومين. كان البيت يعج بالنسوة المتشحات بالسواد، صمت مهيب يقطعه نشيج أمي أو إحدى خالاتي بين الحين والحين، وربما نحيب الزائرات القادمات من بعيد لأداء واجب العزاء.

انقضى العزاء، وأنا راقدة في غرفتي، تأتي إليّ خالتي بين الحين والحين، ولا أثر لأمي، وكلما حاولت النهوض تمنعني الخالة محذرة من مبارحة فراشي.

لماذا لا تأتي أمي إلي؟ ليتها تأتي لتعانقني لكي أبكي على صدرها. أبكي رحيل أبي وأخي اللذين غادرا الحياة أمام عينيّ .

وفي اليوم السابع للحادث قررت أن أنزل إلى الطابق الأرضي؛ لأرى أمي فلم أعد أطيق صبراً.

وحين وصلت درابزين الطابق العلوي المطل على الصالة سمعت الخالة تقول:

- وما ذنبها هي، أين إيمانك بالقدر خيره وشره.

– أكرهها، قدم الشر هذه. تقول أمي في غيظ.

– أي أمٍ أنت! أخبريني كيف لأم أن تكره ابنتها؟

– لا أعرف. المهم أنني لا أريد أن أراها، ليتها ماتت بدلاً من أحمد ليتها كان قرباناً له.

عدت أدراجي مسرعة، تعثرت وسقطت على أرضية الطابق الثاني، فأحدث سقوطي جلبة. نهضت وتابعت المسير إلى غرفتي بخطى متعثرة وتبعتني الخالة.

- مريم، ما الأمر؟
- لا شيء، تعثرت ووقعت، لا شيء مهم .
- وهل أنت بخير الآن؟ هل أصبت بأذى؟
- لا أبداً.

كل قطع الحلوى التي كانت من نصيب أحمد، وكعكات عيد ميلادي التي قطعها بدلاً مني، وشموعي التي أطفأها، والحقائب والمقتنيات الغالية الثمن وأقلام التلوين الجميلة التي كان عليّ التخلي عنها لأجله، وحضن أبي المحجوز دوماً له، وجولات السيارة التي لم يكن من حقي أن أتمنى الانضمام إليه فيها، والاسترخاء على الكرسي الأقرب إلى المدفئة في أيام الشتاء... كل الأشياء التي تخليت عنها لأجل أخي رغم رغبتي فيها لم تؤلمني بمقدار ما آلمني ألا مكان لي في قلب أمي فقلبها له وحده، إلى درجة أنني في نظرها أستحق أن أموت نيابة عنه، أو أن أكون قرباناً له ليعيش هو، ولأذهب أنا إلى الجحيم، شعرت أنني لم أكن يتيمة منذ أسبوع فقط، فأنا يتيمة منذ ولدت .

وبعد ظهر اليوم التالي. اندفع باب غرفتي بعنف حتى أنني أجفلت، دخلت أمي بقامتها الممتلئة، ونظارتيها والسواد يغلفها بالكامل، و رمت على سريري مجموعة من الثياب السوداء... ملابس نوم... فساتين جوارب... ملابس داخلية... وكلها سوداء بلون الحداد...

- هذه الثياب لك. لا أريد أن أراك بالأحمر والأخضر بعد اليوم.

لم أنبس ببنت شفة.

مضت الأيام بوتيرة ثقيلة، صار السواد يسربل بيتنا. أمي تمنع حتى فتح الستائر. تريد للعتمة أن تسود أكثر فأكثر لتتماشي مع عتمة قلبها تلك التي خلفها غياب أحمد.

صور أحمد في كل مكان على الطاولات وعلى رفوف الكتب وعلى جدران صالة الجلوس وغرفة الضيوف.

صرت أشعر أننا نعيش مع أحمد في لحده.

أمرت أمي بإحضار سيارتنا التي تحطمت إثر الحادث وركنها عند مدخل البيت تخليداً لذكرى الحادث ليكتمل المشهد. هكذا أصبحنا لوحة متكاملة تنطق بالبؤس والشقاء والفجيعة.

كانت العزلة ملاذي الوحيد. فما إن أظهر في الطابق الأرضي حتى تبدأ أمي بالتذمر والتأفف وكأنها تطلب مني المغادرة بطريقة مبطنة .

صرت أتناول طعامي في المطبخ، وأمضي بقية وقتي في غرفتي ألعب بالدمى، و حين حانت الذكرى الأولى للحادث في أيلول ١٩٧٦... أقامت أمي تأبيناً فخماً لذكرى أبي و أخي؛ دعت إليه أبرز شخصيات المدينة وأكابرها.

كنت أجلس في ركن قصي في صالة بيتنا بثياب الحداد. كان وجودي في مجلس التأبين طقساً فرضته أمي.

- طفلة في ثياب الحداد! تقول سيدة تجلس غير بعيد عني!
- يا ساتر كأنها غراب تجيبها أخرى!

كنت أتصنع عدم الإنصات.

كان دور المرأة المتفجعة يروق أمي، هذا ما كنت أحس به رغم صغر سني، رأيت أنها لا تريد أن تنقضي أيام الحداد. بل تريد حداداً يدوم إلى الأبد.

انقضت أيام أيلول مسرعة، وقبل تشرين ذهبت مع خالتي إلى المدرسة لغرض تسجيلي في الصف الأول ومن هناك. إلى الطبابة المدرسية حيث تم فحصي وإعطائي لقاحات ضد الأمراض السارية عدنا بعدها إلى المدرسة لإكمال الإجراءات ومن ثم إلى المصور لالتقاط صورة شمسية لتثبيتها في بطاقتي المدرسية.

أتممنا الإجراءات وعدنا إلى البيت. وبعد الظهر قالت خالتي بعفوية بعد الشاي نذهب للسوق لشراء ثياب للمدرسة، واسترسلت قائلة قمصان بيضاء صدرية رمادية. جوارب بيضاء شرائط حمراء، وهنا قفزت أمي من مكانها وكأن ثعباناً لدغها وصاحت.

- مهلاً... مهلاً... أي أبيض وأي أحمر، نحن في حداد، مريم لن تنزع عنها السواد قبل خمسة أعوام

نظرت خالتي إليها شزراً.

- أي سواد وأي حداد يا امرأة إنها طفلة! ألا يكفيك عام كامل من السواد.

_ هذا ما لدي، قالتها أمي بينما تغادر صالة الجلوس.

خرجتُ بعدها إلى الحديقة وجلست ألعب في الأرجوحة. كان ما يحدث أكبر مما قد استوعبه، لكن إحساساً عميقاً بالانكسار كان ينهشني.

لم تلن أمي تحت الضغط الذي مارسته عليها خالتي وفعلاً، ذهبت إلى المدرسة والسواد يسربلني بالكامل حتى حقيبتي كانت سوداء.

أخذتني الخالة من يدي في يومي المدرسي الأول، عند الباب صادفنا أمي، فقالت لها الخالة ساخرة :

- خسارة لا يوجد دفاتر أوراقها سوداء...

لكن لا شيء كان في مقدوره إذابة الجليد المتراكم على قلب ناريمان.

مشينا نحو المدرسة، كانت خالتي امرأة حكيمة، ما إن دخلنا الصف حتى أخذت المعلمة جانباً وحكت لها حكاية الحادث، وأننا من عائلة تقدس حرمة الموت و هذه هي تقاليدنا فحتى رجال العائلة يلبسون ثياب الحداد... لم تمانع المعلمة ولم تعترض على لباسي الغريب.

ومضت الأيام يسيرة، فقد كنت طفلة هادئة أتعلم بسرعة.

كونت بعض الصداقات وصرت ألعب مع الفتيات في صفي. كانت المدرسة بالنسبة إليّ نافذة يتسلل منها النور والبهجة إلى عالمي.

هكذا بلا أحداث تذكر انقضى النصف الأول من السنة. كنت الأولى في النصف الأول، وبعد انقضاء عطلة الربيع، عدنا إلى صفوف الدراسة ،وكنت أمضي أسعد أوقاتي في المدرسة رغم إحساسي العميق بالعتمة والانكسار .

وفي مطلع آذار صادف أن غابت معلمتنا لسبب ما، فاضطرت إدارة المدرسة لإرسال معلمة أخرى لتنوب عنها، دخلت المعلمة البديلة وكانت سيدة سليطة اللسان طويلة القامة بعينين ماكرتين ووجه مستطيل تعلوه حمرة، وكان أول ما وقعت عليه عيناها فور دخولها إلى الصف هو أنا، فأشارت إلي قائلة:

- انهضي يا غراب البين.

ضحك التلاميذ، بينما شعرت أنا بإحراجٍ كبير، وراحت تسألني أسئلة عدة ،وتذيل كل سؤال بعبارة يا غراب البين وفي كل مرة ينخرط الصف بأكمله في موجة عارمة من الضحك.

- ما اسمك، يا غراب البين؟
- لماذا ترتدين هذه الثياب ،يا غراب البين؟

وهكذا... بينما الجميع يضحك، ساعة كاملة من الضحك وأنا واقفة بين التلاميذ، أتمنى لو أن صاعقة تنزل عليّ وتريحني من هذا العذاب.

رن الجرس وانصرفنا إلى بيوتنا، وفور وصولي إلى البيت بدلت ثيابي، وارتديت ما وقعت يدي عليه من ملابسي القديمة، و رميت كل الثياب السوداء أرضاً ودست عليها بحذائي جيئة وذهاباً ، رغم أني كنت قد كبرت وثيابي قد تقلصت عليّ غير أن إحساسي تغير، وصرت أشعر ببهجة فقدتها منذ زمن.

جلست على سريري أكتب واجباتي، ونسيت تماماً أمر الثياب الملونة التي كنت أرتديها، ولما حان موعد الغداء، نزلت إلى المطبخ لتناول

طعامي، صادفتني أمي، فراحت ترمقني بنظرات غاضبة والشرر يتطاير من عينيها:

- ما هذا؟

- ماذا؟ أجبت مرتجفة.

وهنا انقضت عليّ، وراحت تضربني حتى كدت أموت .و لا أدري كيف تمكنت خالتي وجدان من تخليصي من بين براثنها، حملتني الخالة بعدها إلى غرفتها، وأقفلت الباب من الداخل بينما أمي لا تزال تزبد وترعد، وتصرخ وتولول.

ظللت منطوية على نفسي لساعات بينما تجمع خالتي حاجياتها في حقيبة سفر صغيرة.

وحين سكتت أمي أخيراً، صعدنا خلسة إلى غرفتي، حيث جمعنا كتبي وبعضاً من ثيابي وأحذيتي القديمة تلك التي لا تزال تناسبني، وضعنا كل شيء في حقيبة كبيرة كانت تخص أبي.

وما إن عدنا إلى غرفتها حتى أخبرتني أننا لن نقيم في بيت أمي بعد الآن، بل سنرحل خلال ساعة كانت خالتي الصغرى آتية لاصطحابنا، ذُهلت حين رأت آثار الضرب والكدمات على وجهي وذراعيّ! كان ذهولها وإشفاقها علي كل ما احتجت إليه لأنخرط في نوبة بكاء عنيفة، وحين هدأتُ، غادرنا المنزل. لم تعترض أمي طريقنا ، ولربما كان هذا ما تريده تماماً؛ تريد ألا تراني، وأن أغادر وحسب.

في الصباح التالي لوصولنا بيت خالتي سقطت طريحة الفراش. لم أكن قادرة على الحركة بسبب الكدمات والجروح التي سببتها لي أمي. بقيت على هذه الحال ثلاثة أيام. ذهبت الخالة وجدان في هذه

الأثناء إلى المدرسة وتقدمت بشكوى رسمية ضد المعلمة سليطة اللسان، وحصلتُ على إجازة لمدة أسبوع، مكثنا بعض الوقت مع خالتي وزوجها بينما أعادت الخالة وجدان ترتيب بيتها الواقع على أطراف المدينة القديمة...

حصلت لأول مرة على ثياب مدرسية قميص أبيض وصدرية بلون رمادي، وأشرطة شعر حمراء وجوارب بيضاء كسائر البنات، قبل أن تنقضي إجازتي كان البيت جاهزاً للانتقال إليه، كان بيتاً صغيراً، يتكون من غرفة ورواق ومطبخ وخزانة، وفناء صغير لا يكاد يتسع لنا.

كنت أرى في هذا البيت القديم جنتي التي حصلت عليها بعد أن طردت من الأرض على عكس ما حدث مع آدم، الذي هبط من الجنة إلى الأرض، طُردت أنا من الأرض إلى الجنة؛ كان بيت خالتي يعني لي الحرية ونهاية لعذابات عشتها في سنوات طفولتي الأولى، الغريب أنني صرت الآن أُعرف بالفتاة اليتيمة، ولا أحد يدرك أن اليتم وحده ليس مبرراً للشفقة... إننا نعاني من أخطائنا بحق بعضنا أكثر مما نعانيه من أقدارنا المؤلمة، فالموت لا يؤلم بقدر ما يفعل الظلم.

في اليوم التالي ذهبت برفقة الخالة وجدان إلى المدرسة ، وجلست تنتظرني حتى انقضى اليوم الدراسي.

كانت أيامي في المدرسة صعبة، فقد ظلت تسمية غراب البين تلاحقني، رغم تغيير لون ثيابي ، أتممت عامي الدراسي، وبصعوبة حصلت على درجة نجاح.

وجاءت العطلة، كأن حياةً جديدة بدأت، تغيرت شخصيتي ، لا بل تغير عالمي كله، و على الرغم من ضيق المساحة كان البيت يتسع لضوء الشمس، ولضحكاتنا وأحاديثنا ولأحلامٍ حلمت بها . ولصوت أم كلثوم يأتي عبر أثير الإذاعة كل ظهيرة

إنت فين والحب فين ظالمو ليه ديما معاك ده انت لو حبيت يومين كان هواك خلاك ملاك.

صرت أحفظ كل أغانيها وأدندن بها كلما خلوت إلى نفسي.

إلا هذا "الكوبليه" كان يعني لي الكثير، وكأنه اقتباس من روايتي الأثيرة . الحب الذي لا يتمكن من قمع الشر القابع في أعماق النفس أبداً لا يمكننا أن نسميه حباً. الحب الذي لا يجعل الذئب حملاً وديعاً، هو مجرد ادعاء، في الحب عليك أن تنسى نوازع الشر وتتحرر من الأنا وإلا ، فلا تحب.

نسخت فيما بعد كلمات أغاني أم كلثوم كلها في دفتر صغير . ثم ضاع الدفتر مني لا أدري أين ومتى؛ فلم أعد أجده .

لم يزر الوسن أجفاني في ليلتنا الأولى على سطح البيت، كان النظر إلى السماء يشعرني بضآلة تكاد تبتلعني، شعور غريب يشبه الرهبة، مزيج من الإعجاب والخوف، لم أنم إلى أن طلع الصباح، فحملت وسادتي ونزلت لأنام على سريري في غرفة نومي.

تعلمت بعدها الأعمال المنزلية، فصرت أغسل الثياب وأغسل الأطباق، وأمسح البلاط، لم تشعرني هذه الأعمال أنني سندريلا ،كانت أعمال المنزل تعطيني الإحساس بالانتماء إلى المكان أكثر وأكثر ، تعلمت الفنون البيتية

كالحياكة والتطريز، وألف باء الخياطة والتفصيل ،كنت أتعلم كل شيء بنهم عجيب؛ لأنني كنت أشعر للمرة الأولى أنني ابنة ولي أم.
لم تسرد حكاية ولادتي على مسمعي بعد ذلك قط ولا قصة حادث السير الذي أودى بحياة أبي وأحمد، على عكس ما كانت تفعله أمي، فقد كانت تجتر هاتين القصتين كل يوم تقريباً، فتسرد على مسامعي كل الويلات التي كانت تظن أنني جلبتها إليها؛ ثم تبدأ بالنشيج والبكاء، وتتحجج بعدها بأي خطأ، لتوبخني وتذيل خطبتها التوبيخية بمناداتي، يا وجه الشر.
انتهى الصيف ووافقت خالتي على أن تنقلني إلى مدرسة جديدة تبعد مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام
تم النقل، وصرت أرتاد مدرسة جديدة، وأخيراً اكتملت معالم عالمي الجديد، صفحة الماضي طويت كلها، أو على الأقل خارج جدران روحي ، دخلت الصف الثاني برفقة معاون المديرة الذي أخبر المعلمة أنني تلميذة نقل على حد تعبيره .
كانت مقاعد الدراسة تنتظم داخل غرفة الصف في ثلاثة صفوف متوازية، صفاً صفاً إلى جوار النوافذ وصفاً من ناحية الباب وثالث يتوسطهما، ويتشارك كل تلميذين في مقعد دراسي واحد، في مقدمة الصف كان هناك لوحة سوداء تعلوها صورة الرئيس البكر، الذي كان رئيساً للعراق في ذلك الحين، وعلى يمين اللوح يقبع دولاب خشبي مقفل معظم الوقت.
أشارت المعلمة إلى فتاة شقراء ضئيلة الجسم تجلس في آخر صف المقاعد المحاذي للنوافذ أن تنهض وتجلس في الرحلة الأولى مع

فتاتين في مثل حجمها، أجرت تعديلات كثيرة على ترتيب التلاميذ في الصف ثم أشارت إلي لأجلس في آخر مقعد من الصف الوسطي من مقاعد الدراسة.

جلست وحيدة لا يشاركني أحد في مقعد دراستي وإلى يساري يجلس أيوب.

للوهلة الأولى شعرت أن أيوب هذا، شيء مختلف، لم تلفت انتباهه كل الجلبة التي حدثت في الصف، تشعر أنه لا يعير انتباهه لأي شيء، يعيش في عالم خاص أبوابه لا تُفتح إلا لمن يحمل الكلمة السحرية.

كان أيوب أطول طالب في الصف، يميزه طول ساقية، وانحناءة بسيطة في ظهره، أظن أنه كان يتعمد الانحناء كيلا يبدو الأطول. رن الجرس وانتهى الدرس فوجدتني أحدق في الصبي إلى يساري . وحين التفت إليّ تجاهلته وعدت إلى دفاتري. كان له وجه بيضوي، وجبين عال، وعينان عسليتان، وشعر مجعد طويل نسبياً يمنحه إطلالة تشبه إطلالات عباقرة التاريخ.

وفي الفسحة غادر الجميع غرفة الصف إلى الباحة، إلا أنا بقيت جالسة في رحلتي، أتناول غدائي بصمت حين جاء ووقف إلى جواري قائلاً:

- ما اسمك؟
- مريم.
- أنا أيوب.
- أين بيتكم؟
- هناك قرب مرقد الشيخ حنش.

رفض أيوب أن يشاركني غدائي، وقال إنه لا يأكل خارج البيت أبداً، أصبحنا بعدها أصدقاء .

كان أيوب واضحاً لا يخفي شيئاً، حدثني عن أمه وجدته وأخيه الصغير وعن أبيه. كان يسرد لي تفاصيل يومه كلها.

المجد لآدم

اكتشفت أن أمي ليست الوحيدة في هذا العالم التي تعاني متلازمة _المجد لآدم، فمعظم المعلمات كنَّ يعانين من المتلازمة ذاتها ولكن بدرجات متفاوتة وتبقى ناريمان الأولى بينهن.

كان أيوب فتى ذكياً جميلاً ومهذباً، ويحظى بمحبة الأغلبية، ويساعده على ذلك أنه صبي، فحين تسأل المعلمة سؤالاً صعباً، وأرفع يدي لأجيب كانت تتجاهلني وتأخذ الإجابة من أيوب ثم تلتفت إلى بقية التلاميذ وتقول صفقوا له. أصفق ككل التلاميذ، وأردد في نفسي _المجد لآدم _

ومرة سألتني المعلمة عن أطول نهر في العالم فأجبت:

- نهر النيل.
- غلط، قالتها بتقزز، وكأنها داست لتوها على فأر ميت،

ثم التفتت إلى أيوب طالبة منه إجابة .

- نهر النيل. قال أيوب .
- أحسنت، صفقوا له.

أذكر أنني ضحكت فوبختني المعلمة قائلة:

_ أ تضحكين من خيبتك ؟

لم تكن تعلم أنني كنت أضحك من خيبتها هي ... إذ عجز عقلها المغيب تحت تأثير نظرية_ المجد لآدم _ عن فهم إجابتي ، فلم تتوقع مني إجابة صحيحة، فقط لأنني أنثى! والأنثى يجب أن تكون غبية، وإن لم تكن فعليها أن تتغابى.

في مدرستنا لم يكن الصبية مضطرين إلى الاعتذار؛ لأنهم ليسوا في حاجة إلى استجداء الرضا يكفي أنهم خلقوا ذكوراً ... لا داعي إلى لطف التعامل، ولا مزيد من الاعتذارات، فالولد لا يعيبه شيء.

ظل أيوب يحدثني عن حياته. كان حبه لعائلته واضحاً ،وحين سألني عن عائلتي أخبرته أن أبي قُتل في حرب تشرين، حمدت الله أنه لم يسألني عن أمي، فعقلي لم يكن قد اختزن حينها كذبة مناسبة لاستخدامها عند الضرورة.

كان أيوب يتكلم كالرجال ويتصرف كالرجال، تشعر وكأنه رجل يختبئ داخل جسد طفل. كنت أنظر إليه على أنه طفل معجزة. تحسنت علاماتي وعدت إلى سابق تفوقي بعد أن تناسيت تجارب الماضي المريرة.

وفي أواخر الخريف. تغيب أيوب عن مقاعد الدراسة قرابة شهر بسبب إصابته بالحصبة.

لم يعلم أيوب أنني كنت طريحة الفراش أرزح تحت نير الحمى في الوقت ذاته الذي مرض فيه . لم أخبره بذلك مخافةَ أن يحملني وزر ما أصابه، وما أصاب أخاه فيما بعد. فأنا معتادة على تلقي اللوم .

وحين طلبت من خالتي أن تذهب لتطمئن عليه وافقت، على الفور لكنني أوصيتها الّا تذكر موضوع مرضي أمامهم.

لم تعترض الخالة يوماً على قربي من أيوب رغم أنها امرأة تقليدية لا تؤمن بالصداقات بين الجنسين ولا حتى الأطفال. كانت تعتقد أنني أرى في أيوب الأخ الذي افتقده. أرى فيه تتمة لصورتي التي اقتطعت من صور العائلة، وألقيت من دون أي إحساس بالذنب أو تأنيب للضمير . كانت تدرك أن أيوب هو عزائي على كل ما فقدت . لكن القلق كان يتسرب إلى فؤادها فكانت تلح في السؤال عن كل تفصيلة وتدقق وراء كل عبارة يذكر فيها اسم أيوب.

رغم أن صداقتنا دامت لسنوات قليلة، إلا أن أيوب ملأ دفاتر مذكراتي الفارغة منذ ولدت (إلا من حكاية ولادتي المظلمة وحادث السير المروع، وقصة المعلمة سليطة اللسان) بكل ما هو جميل . منه تعلمت حب القراءة والكتب والقصص ومجلات الأطفال، ثم بدأت أنظم شعراً طفولياً.

لم تسأل أمي عني منذ غادرت عتبة بيتنا مثقلة بالجراح تغطي وجهي الكدمات. وحين طلبت منها خالتي أن تخصص لي جزءاً من دخل عائلتنا المتمثل في راتب والدي التقاعدي وايرادات أملاكنا ليساعدها على مصاريف دراستي رفضت، ويا ليتها رفضت وحسب! فقد شرعت بعزف سيمفونية التفجع الخالدة، وصارت ترشق النعوت في كل الاتجاهات... البومة.. وجه الشر... آكلة الرؤوس ليس لها عندي شيء .. كل هذا العداء والسخط كان موجهاً إلى قلب صغير لطفلة في التاسعة من عمرها.

صرت مقتنعة الآن أن أمي لم تكن تكرهني أنا، بل كانت تكره نفسها وطفولتها فيّ.

علمت أن عائلة أيوب ستنتقل عما قريب إلى بيتهم الجديد، لكنني لم أفكر كثيراً في الأمر، حتى جاء ذلك اليوم حين رافقت السيدة شمس أيوب إلى الامتحان الأخير... رأيتهما يدخلان من باب المدرسة.. فتواريت خلف شجرة كيلا يرياني.

لم يكن أيوب من نوع الفتية الذين يتحرجون من حضور أمهاتهم، ولم يكن يخفي اسم أمه عن أصدقائه، فمرة مازحه طفل قائلاً :

_ أيوب ابن شمسة.

لم يعر أيوب أي أهمية لما يفترض به أن يكون أقرب إلى الشتيمة، فطالما اندلعت في المدرسة عراكات واشتباكات بالأيدي ما إن يُنادى صبيٌ باسم أمه .

كان أيوب يمشي إلى جوار أمه من دون أي توتر ،

كان للسيدة شمس أو ست شمسة كما يسميها الجميع حضور طاغ... أظن أن أيوب ورث عنها خاصية سرقة الأضواء. سيدة طويلة القامة ببشرة حنطية وعنق طويل وعينين سوداوين تشع منهما الفطنة والثقة بالنفس. لم تكن تكبد نفسها عناء التصنع والادعاء.... تتصرف بعفوية وتلقائية.

امتحن أيوب قبلي ،نادته المعلمة.. فأنشد أنشودة لاحت رؤوس الحراب ،لكنه قرأها كقصيدة من دون أي لحن... غادر أيوب بعدها وحين جاء دوري

أنشدت أنشودة :

كبرت بان.. كبرت بان.... صارت أحلى من نيسان
أكملت امتحاني وخرجت بينما عقلي يسألني هازئاً كعادته لماذا لم تصر بان أجمل من تشرين أو آذار! هنا اقترب أيوب وسألني:
_ماذا سألتك؟
_كبرت بان.
ضيق أيوب عينيه كعلامة على سخريته من الأنشودة. انضممنا إلى والدته ألقيت التحية وأنا أشعر بخجل كبير.
وما إن خرجنا من الباب حتى ناولتني لفافة من ورق ملون... هدية على ما يبدو.
كانت تتكلم معي بنبرة لم أفهمها حينها، أو ربما أخطأت فهمها، كانت تتكلم وكأنها توبخ طفلاً كسر زهرية رغم أنها كانت تتحدث عن هدية مقدمة منها ومن أيوب لتبقى ذكرى عندي، لكن عينيها كانتا تشيان باللوم وتتوعدان بالعقاب . كنت معتادة على تلقي اللوم، فأنا دوماً أُلام على ما أفعل وما لا أفعل ، كان عمري وقتها أحد عشر عاماً فلم أفهم سر التناقض بين المعنى الظاهر للكلمات وبين ما تشي به العيون . أخذت اللفافة من يدها ونسيت أن أشكرها. كان أيوب يحاول أن يحصل على فرصة للكلام لكن حضور أمه الطاغي وأسلوبها أغلق عليه كل منافذ الحوار...
غادرتهم مسرعة، والدموع تنفر من عينيّ، وبعد بضع خطوات سمعت صوته يناديني.
- مريم

التفتت، فوجدته يحمل كريستال على شكل زهرة لوتس معها حبة عقيق منطلقاً كالسهم نحوي، وقال:

- إنهما لك . ثم انصرف عائداً إلى أمه التي كانت تنتظره. تنتظر آدم خشية أن تلتهمه حواء.

رجعت إلى البيت، والدموع تخنقني، فضضت لفافة الورق واستخرجت الهدية كانت عبارة عن كتاب رواية جين وبستر. صاحب الظل الطويل.

ترى لماذا اختار أيوب هذه القصة بالذات؟ وهل اختارها هو أم اختارتها أمه؟

وضعت الرواية جانباً، فلحظت شيئاً يظهر من بين الصفحات إنها بطاقة بريدية، وردتان على غضن!

إذا كنت تظن أنني أحببت أيوب في تلك السن الصغيرة فأنت على خطأ، نعم أحببته فيما بعد ... أما في الطفولة فقد كانت مشاعري نحوه مختلفة. كان أيوب يمثل عالمي المفقود ... حين كان أيوب يحكي لي عن أمه وعن أبيه وعن حبه ليوسف، وعن الأغاني التي كان أبوه يغنيها لهم وكيف يغنيها تارة بالفارسية وبالعربية والانكليزية تارة أخرى ، كنت أنصت بكل اهتمام وحين أعود إلى البيت، أسمح لخيالي بشيء من التحليق، فأتخيل أنني ابنتهم وأتحلق معهم حول صينية العشاء. وقبل أن أنام ترقيني نانا فاطمة بآيات القرآن ثم تنفخ في كفيها وتمسح على شعري. ويوم اختفى يوسف حكى لي أيوب الحكاية كاملةً؛ حكاية اختفاء يوسف بينما تخنقه دموعه كل فينة وأخرى... تخيلت نفسي ابنتهم وقد ضعت والكل يبكون غيابي،

فغمرتني سعادة كبيرة. كان الضياع بالنسبة إلي سعادة، إذا كان لي أهل يبكون غيابي .. أنا التي تمنت أمي موتى بدلاً من أحمد.
كان أيوب بالنسبة إلي هو النصف المفقود من الحكاية. وتتمة اللوحة...
مرت أيام الصيف. وقرأت كتاب أيوب مرات ومرات، كانت مجرد قصة بالنسبة إلى طفلة في الحادية عشر من عمرها... ولكن حين كبرت علمت ألا شيء يأتي من فراغ؛ حتى الصدف لا تأتي مصادفة، فأنا لا أختلف كثيراً عن جيروشا التي ألقاها أهلها في مكان ما، ليلتقطها فاعل خير ويضعها في دار الأيتام، وثياب الحداد التي أجبرت على ارتدائها لا تختلف عن الثياب القطنية السوداء ذات المربعات، التي طالما كرهتها جودي.
لم يحضر أيوب لاستلام نتيجته في الأسبوع الثالث من العطلة، كان ذلك خيبة أمل بالنسبة إليّ، فقد كنت أمنّي نفسي برؤيته من جديد.
خلال الصيف انشغلت بأعمال المنزل مع خالتي . فكنت أنظف وأرتب البيت وبدأت خالتي تعلمني أبجديات الطهي، استطعت أن أدخر بعض النقود من مصروفي ، لابتياع بعض الكتب وكلما مررنا بمكتبة العم حيدر، كنا نجد علي ولا أثر لأيوب .

فتاة كبيرة

انقضى الصيف وجاءت أيام الدراسة، في الصف الخامس، جاءت إلى مدرستنا فتاة جديدة وفدت إلينا من مدرستي السابقة كانت تكبرنا سناً فهي من نوع الفتيات اللواتي يأخذن العام الدراسي بثلاثة أعوام.
تعرفت إلى الفتاة على الفور، ما إن رأتني حتى نخرت ضاحكة :
_ غراب البين، ضحكت هي وصديقاتها، ثم انصرفن، وكان يبدو أنها تسرد لهن القصة، إذ كنّ يضحكن وينظرن نحوي.
أسرعت بعدها إلى صفي، لأختبئ قبل أن تنتشر الأخبار بين التلاميذ والتلميذات.
وما إن دق الجرس حتى كنت أول المغادرات من باب المدرسة .حثثتُ الخطى تجنباً للتواصل مع أيٍ من الطالبات. كنت أريد أن أختفي ولا يراني أحد. دخلت إلى البيت لاهثة وأغلقت الباب ورائي بعنف .

- ماذا هناك؟ تبدين خائفة! سألت خالتي.

– لا شيء ...

دخلت إلى غرفة النوم، ولم أغادرها حتى غربت الشمس، بعدما رفضت كل محاولات خالتي لإقناعي بالخروج على الأقل لتناول الغداء .وحين غابت الشمس.. كانت خالتي قد أكملت ما لديها من أعمال الحياكة والتطريز .
دخلت خالتي الغرفة وأضاءت النور :

- هيا أخبريني ماذا هناك؟
- غداً تنقلينني إلى مدرسة جديدة.

- حاضر، أنت فقط أشيري، وأنا أنفذ . لماذا هل المدرسة لا تطاق إلى هذا الحد من دون أيوب... قالت عبارتها الأخيرة بابتسامة تآمرية ساخرة كعادتها...

- على العكس، الحمد لله أنه لم يكن موجوداً ليري ما حدث.

_ وما الذي حدث؟

قصصت على خالتي قصة الفتاة الكبيرة القادمة من الماضي، كانت خالتي تنصت بعناية ويبدو أنها تثبت نقاطاً في ذهنها. وما إن أنهيت سرد قصتي، حتى عدلت جلستها

– هذا كل ما لديك، يا حبيبتي؟

فهززت رأسي بالإيجاب

- حبيبتي مريم. أنا ليس لي أحد سواك أنت عالمي بأكمله، ولا شيء أحب إلى قلبي من إرضائك، ولكن إلى متى ستستمرين بالهروب، عليك أن تواجهي، الهروب ليس الحل هل ستنتقلين من كل الأماكن التي تتعرضين فيها للأذى هذه المرة لن نهرب يا مريم سنواجه. واتركي الأمر لي.

وفي صباح اليوم التالي، ارتدت خالتي أحسن ما عندها ورافقتني إلى المدرسة، وحين وصلنا وقفنا في الباحة الصغيرة القريبة من غرفة المديرة. وما إن وصلت المديرة حتى تبعناها إلى غرفتها.

وبعد إلقاء التحية بدأت خالتي حديثها. بسرد ما حدث لي مع التلميذة الجديدة بالأمس ثم أكملت قائلةً :

– حضرة المديرة الطفلة تعرضت إلى ظروف قاسية جداً خسرت أباها وأخاها الوحيد في حادث سير مروع، وتم استخراجها من تحت ركام

السيارة بين الحياة والموت. وكتب الله لها الحياة، وبعدها عانت من مرض أمها النفسي، وبصعوبة بالغة استطعت أن أنتشلها من حزنها وإحباطها. والآن بعد أن شُفيت، أخذت الفتيات يتنمرن عليها، وينعتنها بصفات لا تليق بإنسان. هل يرضيك هذا أم أشتكي لمن هو أعلى.

– لا يرضيني على الإطلاق، قالت والتفتت إلي وسألت:

_ ما اسم الفتاة التي أزعجتك؟

_نهلة محمود، السادس ب.

_ عُلِم... اذهبي بُنيتي واصطفي مع زملائك في الطابور .

نظرت إلى خالتي أستجدي مساعدتها، فأومأت لي بإشارة ما؛ فهمت منها أنها تريدني أن أكون قوية.

مشيت خلف المديرة أجرجر نفسي؛ وقفت في الطابور لا أطيق أن أنظر في وجه أحد وأحسب كل الابتسامات والهمسات موجهة إليّ:

أنشدنا النشيد الوطني، وما إن أكملنا حتى تناولت المديرة مكبر الصوت، وشرعت تقول:

_ نهلة محمود السادس باء فلتتفصل وتقف هنا أمامي.

خرجت نهلة من الطابور بقوامها الأقرب لقوام سيدة منه لطفلة، كان وجهها شاحباً كالأموات من شدة الخوف وشفاهها ترتجف. تقدمت المديرة نحوها وصفعتها. كان الصفع والركل والتعنيف حينها أسلوباً تربوياً شائعاً.

- نهلة محمود مفصولة من المدرسة، وغداً يجب أن يحضر ولي أمرك. كان هذا نص القرار الذي تلته المديرة قبل أن تأمر بانصراف الطابور.

رأيت نهلة تبكي بحرقة وتتوسل المديرة وتقول إن أباها مفقود... وأمها متزوجة، وإنها تعيش في بيت عمها، وإن عرف عمها سيجبرها على ترك الدراسة ويزوجها لأول خاطب، لم تستجب المديرة إلى توسلات نهلة. للحظة تمنيت لو أنني أملك الشجاعة الكافية لأقف أمام المديرة وأطلب منها أن تعفو عن نهلة، لكنني جبنت.

انفض الاجتماع وتوجه كل إلى صفه. وكان الجميع ينظرون إلي. هكذا انتصرت على الماضي قهرته فلن يعود إلى ملاحقتي من جديد. لن أخاف بعد اليوم من أحد يملك صورة لي وأنا بثياب الحداد تلك.

بدأت بعد ذلك بتكوين صداقات مع الفتيات. وكبر عالمي واتسعت مداركي. كان الخوف من الماضي يغشى عينيّ ويكبل يديّ وقدمي. أما الآن فأنا حرة طليقة.

أديت الامتحانات العامة للصف السادس الابتدائي في مدرسة بعيداً نسبياً تقع في منطقة السرجخانة، كنا مجموعة من الفتيات نجتمع عند باب مدرستنا في السابعة صباحاً وننطلق إلى مركز الامتحان نشق طريقنا عبر شارع الفاروق . أتلفت حولي ربما ألمح أثراً لأيوب. ومرة لمحت العم حيدر في سيارة، لكنه كان وحده وفي يوم الامتحان الأخير أخذت بعض مدخراتي ومررت بالمكتبة اشتريت بعض القصص أميرة صغيرة... آخر محاربي الموهيكانز... روبنسون كروزو

عدت إلى البيت مسرورة فمجرد مروري بالمكتبة كان يمنحني أحاسيس جميلة .

وذات مساء بينما الجميع يترقب النتائج التي كانت ستعلن عبر أثير الإذاعة. كان المذياع يعمل طوال النهار خشية أن يفوتنا إعلان النتائج...

دقت الساعة الثانية بعد الظهر ،وبدأت ،أم كلثوم

أنساك ده كلام.. أنساك يا سلام....

لا أدري كيف سرقت يقظتي إغفاءةٌ ...

- انهضي، النتائج ستعلن الآن. تقول خالتي.

بدأ المذيع بالمقدمات الرسمية...

وفيما يلي أسماء الطلبة الناجحين في الامتحانات العامة للدراسة الابتدائية وحسب الترتيب

فلانة الفلاني.. بغداد الكرخ معدل ١٠٠٪

أيوب حيدر عبد الله الموصل نينوى معدل ١٠٠٪

لا أدري ما الذي اعتراني حينها قفزت من مكاني وصفقت،

حاولت خالتي أن تهدئتي...

- صه دعينا نسمع نتيجتك!

كان تسلسلي بين الناجحين هو الحادي والثلاثون على مستوى القطر والسابع على مستوى نينوى...

فعلها صاحب الظل الطويل، ونال المركز الأول على مستوى القطر.

وفي صبيحة اليوم التالي توجهنا إلى المدرسة، لاستلام النتيجة بشكل رسمي، والبدء في إجراءات الانتقال إلى المدرسة المتوسطة. رحبت بنا

المديرة أيما ترحيب واحتفت بنا أيما احتفاء. كانت فخورة بنتيجتي، فقد كانت هذه المرة الأولى التي تحصل مدرستنا على موطئ قدم بين العشرة الأوائل على المحافظة.

ذهبنا بعدها إلى المدرسة المتوسطة، بناية من طابقين مبنية من الحجارة تتوسط حديقة كبيرة، تحيط بها أشجار السرو واليوكالبتوس. دخلنا إلى غرفة المديرة الواقعة ضمن جناح الإدارة الواقع غرب البناء المؤلف من عدة غرف.. وعلى باب كل غرفة هناك يافطة تعريفية.. أولاً غرفة المديرة.. غرفة المعاونة... غرفة المدرسات ... وأخيراً غرفة المرشدة التربوية وهنا غاص قلبي بين ضلوعي، أحسست أن يداً كانت تضغط على حنجرتي فتمنعني من التنفس، وصلت معاونة المديرة، فأيقظني صوت اصطدام كعب حذائها المستدق ببلاط الأرضية مرة تلو مرة... كانت سيدة بوجه مستدير وخدود ممتلئة... وقوام معتدل ترتدي قميصاً أزرق وتنورة سوداء، بينما تربط شعرها إلى الخلف وتتركه ينسدل إلى ما تحت كتفيها ، كانت تبدو وقتها في نهاية ثلاثينيات العمر . فتحت ملفي وأثنت على معدلي. أتممنا الإجراءات بسهولة وعدنا إلى البيت في وقت قياسي.

وفي تشرين ١٩٨٣ التحقت بالمدرسة الثانوية، الصف الأول الثانوي.

كنا ننتظم في طابور بثياب ملونة وكأننا في احتفال. جميع الطالبات الجديدات منهن والقديمات. اقتربت معاونة المديرة تتبعها الست شمس.. المرشدة التربوية.. بحضورها المعتاد، لكنها هذه المرة تبدو

بهيئة مختلفة فقد انتفخ بطنها، يبدو أنها كانت تحمل زائراً جديداً يوشك على الوصول.

نادت المعاونة على الأسماء، اسماً تلو الآخر حتى وصلت

- مريم صدِّيق نجيب.
- نعم.

مشيت وقد طأطأت رأسي متجاهلة نظرات الست شمس التي على ما يبدو لا تزال تذكرني.

الصف الأول ب، كان هذا صفي.

كل هذه التفاصيل كانت ولا تزال تعني لي الكثير، فقد كانت هذه التفاصيل أشبه بالأحداث المصاحبة لشق الشرنقة تمهيداً لخروج الفراشة... اليرقة الدميمة ... قررت أن تعيش ولكن بشكل مختلف ومن هنا شقت الشرنقة وخرجت إلى عالم الوجود.

مرت الأيام، ولم أعد أرى ست شمس، وقيل إنها في إجازة للوضع، وذات صباح التقيت بيمامة الفتاة الشقراء الناعمة، فنظرت إليّ بطرف عينها، وهمست "غراب".

لا أدري ما الذي دفعني وقتها إلى الضحك ! ضحكت حتى كدت أسقط أرضاً، تذكرت حينها كيف كان أيوب يتعمد إغاظتها حين يضم إبهامه إلى سبابته في إشارة تهكمية إلى صغر حجمها، صارت يمامة بعدها تتجنب النظر إلي أو الوجود على مقربة مني، وقد منحني ذلك إحساساً بالانتصار.

ظل أيوب يسكن هواجسي وأحلام يقظتي ومنامي، كبرتُ وكبرت مشاعري نحوه رغم شُح اللقاء، مرت شهور عادت بعدها ست شمس

إلى الظهور في جناح الإدارة ولكن من دون كرش هذه المرة وبملامح متعبة.

وذات يوم، أثناء انصراف المدرسة كانت سيارة العم حيدر تنتظر في الخارج، وفي المقعد الأمامي كان يجلس أيوب. لم يتغير كثيراً، غير أنه قد كبر وطال شعره أكثر، و كعادة أيوب حين تمر من أمامه يُخيل إليك أن كل شيء بالنسبة إليه غير مرئي، ما عدا الموجودات الحاملة لكلمة السر. ويبدو أنني قد أضعت كلمة السر في سنوات الغياب.

مرت السنوات بعدها ولا لقاء ولا شيء جديد. ظل أيوب

بالنسبة إليّ هو صديقي الذي أنتظر لقاءه، وأدخر الكثير من الأحاديث لأخبره بها حين نلتقي. الصديق الافتراضي الذي أكتب إليه رسائلي. وأدخر كل تفاصيل يومي لأسردها له يوماً ما.

ذات يوم كانت الفتيات مجتمعات حول طفلة صغيرة يلاعبنها في حديقة المدرسة. حين سألت عنها قالوا إنها زينب ابنة ست شمسة . كانت زينب تشبه يوسف أكثر مما تشبه أيوب .كان الحديث يدور حول أيوب الفتى الوسيم الذي أسر قلوب كل طالبات المدرسة...

كنّ يسألنها عنه وهي تجيب بعفوية طفلة في الثالثة. اقتربت من الصغيرة نظرت في عينيها اللتين تحتلان معظم مساحة وجهها :

- كيف حال يوسف، سألت :

اكتسى وجه الصغيرة بمسحة من الحزن، وبدت وكأنها تغالب الدموع بينما كانت تقول:

- يوسف مسكين...

أصابتني عدوى الحزن فابتعدت ورحت أتذكر أيام كنت ألعب فيها مع أيوب في بيتهم، و يوسف يقفز ويرفرف هنا وهناك كعصفور صغير.. تُرى كيف أصبح شكله الآن. وهل تعلّم الكلام وهل تحسنت حالته؟ .مسكين يوسف. صدقتِ زينب .

في العام ١٩٨٦، بدء مشروع بناء جسر جديد لا أدري ماذا أسموه فيما بعد، لكننا نحن –الموصليين– لا نزال نسميه الجسر الخامس.

عميقاً في التاريخ، ولا أدري متى كان أجدادي يعبرون دجلة من منطقة الميدان على جسر خشبي عائم، ثم وفي عام ١٩٣٢ بُدئ العمل على بناء جسر حديدي يربط جانبي المدينة، وافتتح الجسر في عام ١٩٣٤؛ افتتحه الملك غازي– رحمه الله– ولا تزال الحَكايات تُروى عن يوم افتتاح الجسر، وكيف وقف تلاميذ المدارس يستقبلون جلالة الملك وينثرون بتلات الأزهار في طريقه، وبعد ثلاثين عام افتتح الملك فيصل الثاني جسر الحرية في العام ١٩٥٥ ،سُمي حينما أُنشئ جسر فيصل الثاني ، ومن ثم سُمي جسر الحرية بعد ١٩٥٨. وفي منتصف السبعينيات شُيد جسر أبي تمام بتصميمه المتميز بالأقواس ليربط منطقة الغابات بالشفاء. ثم جسر الشهداء أو جسر الرابع الذي يحمل الموصليين من منطقة الدواسة إلى حي الضباط. وأخيراً الجسر الخامس الذي لم نعرف له اسماً سوى أنه خامس إخوته وآخر عنقود جسور المدينة العابرة للنهر المسن.

كان بيت خالتي وجدان يقع ضمن مخطط الجسر كان علينا مغادرة المدينة العتيقة ومبارحة أسوارها. تم تقويم البيت بمبلغ سخي من قبل

لجنة مختصة زارت البيت، وتفحصته وقدرت قيمته بمبلغ يمكننا من شراء بيت جديد على الضفة الثانية من النهر.

تكفل زوج خالتي نوران بأمر البحث عن بيت يناسبنا. حصلنا أنا وخالتي وجدان على بيت قريب من بيتهم بيت مؤلف من طابق واحد؛ غرفتين للنوم وغرفة ضيوف وصالة، ومطبخ كبير وحديقة وأشجار ليمون كثيرة. لكنها لا تشبه شجرة الليمون تلك التي كانت في فناء بيت أيوب منذ سنين مضت.

غادرت الحي القديم ولكنه يوماً لم يغادرني، فقد ظل يسكنني حتى يومي هذا، ولاتزال أحلامي تدور فيه، ففي الليلة الماضية حلمت أنني لا أزال طفلة صغيرة في السادسة، أركض في الدروب والأزقة العتيقة. لأشتري الحلوة من الدكان، بينما يلعب الصبية بكرة قماشية محشوة بالصوف، فيتعالى صياحهم... گووول... فاصحو من نومي.

وفي ليالٍ أشد قسوة كنت أحلم أنني لا أزال أرتدى ثياب الحداد، فتأتي ناريمان لتأخذني من بيت خالتي، وأنا أبكي وأصرخ ولا يخرج صوتي.

انتقلت إلى مدرسة جديدة. ارتدتها بداية العام الدراسي (٨٦_)٨٧ .في تلك المرحلة كنت قد اعتدت البدايات الجديدة فما عادت ترهبني. كنت وقتها في الصف الخامس العلمي. ازداد طولي. ولكن شكلي لم يتغير كثيراً فلا يزال الكثيرون يحسبون أنني ابتسم لهم فيبادلونني الابتسام. لا شيء يميزني. إنني فتاة عراقية ببشرة لها لون القمح وشعر أسود وعيون سوداء واسعة تتولى مهمة الكلام نيابة عني في كثير من الأحايين، وأهداب كثيفة وأنف بارز يشبه أنف حمورابي، ومعظم أبطال الأساطير البابلية.

ومرة أخرى جمعني القدر بأيوب، ومرة ثانية كنت غير مرئية بالنسبة إليه. كنت وقتها أعِد لامتحان البكالوريا فذهبت لأشتري بعض الملازم والملخصات. وبينما كنت أنتظر دوري في مكتبة تقع في شارع الجامعة كان هناك شاب يقف أمامي. وظهره نحوي ،يتلكم مع صاحب المكتبة بصوت رجولي لا أعرفه، لا أدري كيف لم أميز ساقيه الطويلتين، التفت فجأة وشعره الغاضب كأشعة الشمس في يوم تمّوزي، أيوب صرخ كل شيء فيَّ عدا صوتي الذي آثر الصمت . مر أيوب من دون أن يلحظ وجودي .

عدت إلى البيت عازمة على إلغاء كلمة أيوب من قاموسي فأيوب لم يعد إلا وهماً يستنزفني ويسرق أيامي.

دخلت فوجدت خالتيَّ تتحدثان؛ قطعتا الحديث ما إن دخلت...

- حضري لنا الشاي. قالت خالة وجدان

علمت أن أمراً ما يتم تدبيره.

وقبل أن أصب الشاي نادتني خالتي:

- حبيبتي مريم أمك مريضة وتحتاج إليك.
- هل مللت مني؟ هل أزعجتك بشيء؟ هل ثقل حملي عليك؟ قلت ثائرة.
- تمهلي يا مريم، قالت نوران.

نهضت خالتي وجدان وجلست حذوي ولفت ذراعها حول كتفي فبادرت بالابتعاد بعصبية.

– تكلمي أنت يا نوران. قالت خالتي وجدان.

– حبيبتي مريم أمك تحتضر وهي طلبت رؤيتك .خالتك وجدان لن تتخلى عنك إنها فقط تؤدي واجبها نحو أختها لا أكثر .

– لأجل ماذا تريد ناريمان خاتون رؤيتي؟ ومتى عرفت أنّ لها بنتاً، ثم خانني صوتي وخنقتني العبرات.

عانقتني خالتي وجدان، وبكيت على صدرها كما بكيت يوم أرادت أمي قتلي وأنا في السابعة من عمري.

صحبنا بعد غروب شمس ذلك اليوم زوج نوران إلى بيت أبي.

دخلنا من باب الحديقة. التي أمست الآن موحشة مهجورة مليئة بالأعشاب والحشائش ، وأشجار البرتقال تخنقها الحشائش المتطاولة . لا تزال سيارة أبي المُحطَّمة كعلبة مشروب غازي داس عليها أحد المارة مركونة أمام الواجهة وقد علاها الصدأ . أحسست أنني لم أعش حزني وفقدي لأحمد وأبي ساعة فقدتهما، وأن القدر جاء بي اليوم لأستعيد كل اللحظات التي سرقت مني في الماضي . أسرعت نحو حطام السيارة والغصة تكاد تخنقني، انحنيت على الحديد الصدئ وبكيت، بكيت طفولةً اغتيلت تحت ذلك الحطام . توجهنا بعدها إلى مدخل البيت وصعدنا الدرجات الثلاث. استقبلتنا الخادمة، وقد تقدمت بها عجلة العمر، الصالة لا تزال على حالها كمعرض تأبيني يضم كل لحظات أحمد وألعابه ودراجته وصوره لم أستطع أن أطيل النظر في كل الموجودات . صحبتني خالتي إلى الطابق العلوي حيث ترقد أمي، ولجنا غرفة نومها الخالية من أي بهجة.. كانت ترقد في فراشها. كانت شاحبة هزيلة، يغلف السواد كل ما حولها...

- تقدمي، يا مريم، تقول أمي... أقترب، ولكنني لا أزال بعيدة كطفل يخاف الدنو من النار
- ابنتي حبيبتي. قالت ناريمان بصوت واهن.

يبتسم في داخلي دافع من سخرية، وأتذكر أم كلثوم وهي تقول أنت فين والحب فين... ولا إجابة.

يسرح خيالي إلى كل الأمهات اللواتي صادفتهن في أعوام عمري السبعة عشر فلا أجد أماً أبشع منها.

تسترسل في بث كلمات الحب والعاطفة المتأخرة، التي تقع في نفسي كوقع الهدف الذي هز شباك الخصم بعد انطلاق الصافرة، أتمنى لو أقول لها:

"ناريمان خاتون أنت لا تحبينني، أنت في حاجة إليّ وربما في حاجة إلى مغفرتي، أين كان حبك حين سقطت على وجهي يوم كنت تنذرين حياتي فداء لأرواح من تحبين؟ أين كان حبك طيلة أحد عشر عاماً من التيه، أين كان حبك حين كنت أعتاش مع خالتي على الفتات بينما شبعت الفئران حتى التخمة من قرض أموال عائلتي، أين كان حبك حين كنت فتاة ضعيفة بثياب الحداد يزدريني كل من حولي .

تركتها تكمل حديثها، وغادرت من دون أن أنبس بكلمة . وبلا توقف وجدتني على الرصيف أمام باب الحديقة ، تتبعني خالتي وجدان لاهثة، يبدو أنني كنت أركض. كان ذلك آخر لقاء بيني وبين أمي.

كان امتحاني قريباً حين زرت أمي في بيتها في تلك الأمسية.كان لابد من ذلك اللقاء، لا بد من المواجهة . آلام الماضي لا تشفى بالهروب.

أديت امتحان البكالوريا، حصلت على معدل عال يؤهلني لدخول كلية الطب أو الهندسة في أصعب الاحتمالات، كنت أنتظر ظهور نتائج القبول بفارغ الصبر، وفي أثناء فترة الانتظار رحلت أمي ناريمان صدقي إلى بارئها ،لحقت بأحبتها أخيراً.

ربما يتصور بعضكم أنني لم أحزن لموتها... لا على العكس، فلربما أوجعني رحيلها، لست أدري! فقد كنت أتمنى أن تعطينا الحياة فرصة أطول لتندمل الجراح .تمنيت لو أنها شفيت وعاشت لنتصالح ، لو أنني حضنتها، وشبعت من حنانها الذي حرمت منه لسنوات... لكن الأجل لا يخطئ.

اجتمعنا أنا وخالاتي في بيت أبي تمهيداً لإيصال ناريمان إلى مثواها الأخير في الصباح التالي لتوارى الثرى.

وفي تلك الأثناء امتلأت سماء المدينة بالعيارات النارية. إطلاقات مستمرة وفي كل الاتجاهات. اضطررنا لكسر قواعد الحداد المتبعة في بيوت الموصل آنذاك فشغلت خالتي التلفاز بصوت خفيض. لا شيء سوى أناشيد وطنية... ثم ينقطع البث فجأة ويظهر مقداد مراد...

أيها الشعب العظيم... إنه بيان البيانات... إنه يوم النصر العظيم

أُعلن وقف إطلاق النار بين العراق وإيران والعودة إلى اتفاقية الجزائر، هكذا انتهت حرب الثماني سنوات بعد أن حصدت أرواح مليون إنسان

من طرفي الحرب ؛ بعد أن امتلأت البيوت بتعبير يتيم؛ شهيد؛ مفقود؛ أسير.. أرملة... انتهت يوم رحيل ناريمان.

انتهى العمل في الجسر، وصرنا نعبر من فوق أطلال الذكريات ذهاباً وإياباً.

تجمع أهالي المدينة على الجسر حديث العهد يرقصون ويغنون احتفالاً بانتهاء الحرب. ربما كان الأجدر بنا أن نعلن الصمت حداداً على كل روح أُزهقت في تلك الحرب الملعونة بدلاً من الرقص والتطبيل.

الغريب أن رحيل ناريمان، كما اعتدت أن أسميها في سنواتها الأخيرة، ترك في حياتي فراغاً ومشاعر لم أفهم كنهها حتى هذا اليوم؛ مزيجاً من الحزن على حياة لم تعشها، ونِعَم لم تستشعر وجودها ،و رحيل سريع لم يمهل جراحي لتشفى لعلي أسامحها. تركت خلفها فجوة كبيرة في مساحات تفكيري؛ فجوة كانت تشغلها هي بجبروتها وسلطتها وخوفي المستمر من أن أعود إليها وقلقي من كل اللقاءات المحتملة.

المغادرون كلهم يتركون فراغاً في فضاءاتنا . من نحب ومن نكره .الفرق هو أن الفراغ الذي يتركه غياب الأحبة يشعرنا بالبرد . وكأن فجوة توشك أن تبتلعنا. عتمة كالتي يسببها انطفاء نجمك المحبوب من سماء ليلة صيفية، فنشتاق حين نكون على أمل بلقاء. أو نشعر بالفقد حين يكون السفر بعيداً. أما من لا نحب فغيابهم فراغ . فراغ يمنحنا المزيد من الحرية المزيد من المساحة والمزيد من الهواء لنتنفس.

هكذا انتهت إلى الأبد كل صِلاتي بالماضي، حتى البيت الذي احتضن خوفي وبكائي وانكساري هدمه الجسر.

هذه المرة ارتديت ملابس الحداد برغبتي، ربما أراد جزء مني أن يتصالح مع ما تبقى من ذكرياتي مع ناريمان . ربما أردت لا شعورياً أن أثبت لنفسي أن ثياب الحداد السوداء ليست بهذا السوء ، ربما رغبت أن أقنع نفسي أن المغفرة ليست بهذه الصعوبة .

و أخيراً أعلنت نتائج القبول المركزي، ذهبت أنا وصديقتي إلى مبنى مديرية تربية نينوى لنرى نتائج القبول. قُبلت في كلية الطب جامعة الموصل. بجهدٍ مضن استطعت أن أمنع نفسي من البحث عن اسمه بين قوائم أسماء المقبولين، فقد كنت عاهدت نفسي على نسيانه.

ها أنا أعود إلى تخوم المدينة القديمة من جديد. ها أنا أقترب من مرتع الطفولة وحديقة الذكريات.

حضرنا بعد أسبوع للتسجيل فإذا به أمامي.

- أنت ثانية. قلت في نفسي بينما اصطنع اللامبالاة .

سجلت في الكلية. وحمدتُ الله أن تصنيف الطلاب كان في ذلك الحين يخضع للأبجدية، فأضحيت أنا في وادٍ وهو في وادٍ آخر . بصعوبة أراه من بعيد بشعره المنكوش وساقيه الطويلتين.

مرت الأشهر الأولى صعبة وثقيلة. التحول السريع إلى الإنكليزية التي لا تمت إلى ما درسناه في الثانوية بأية صلة .. والرعب من الجثث في صالة التشريح، وتجارب الكيمياء الحياتية والكشف عن أجسام الكيتون في بول مرضى السكري ، ومختبر الحاسوب.

وحين أطل الشتاء يلف سماءنا بعباءته الرمادية، كان أيوب قد تدبر أمره، فآدم يبقى آدم في كل زمان ومكان ؛ فلا يُطيق جنةً بلا حواء.

كانت فتاة صغيرة الحجم، بعيون زرقاء وشعر أشقر تتخلله خصلات ذهبية ، ملامح منمنمة ؛ عيون ضيقة أنف بحجم حبة فستق وشفتان تشبهان حبة الكرز. تتكلم بعربية متكسرة تشوبها لكنة أعجمية . هكذا تبدو آرين أو آرينا كما كان المقربون منها يسمونها . مرة أخرى شعرت أن مزيداً من الهواء أصبح متاحاً لي لأتنفس ملء رئتيّ .صرت أتحرك في فضاءات الكلية بحرية أكبر بعد ما ظهر أيوب مع صديقته . رغم أن نيران الغيرة كانت تضطرم في قلبي .

وقبل انتهاء ديسمبر تم الإعلان عن حفل ينظمه اتحاد الطلبة لطلاب المرحلة الأولى يسمونه حفل التعارف .كنت في الشهرين الماضيين قد كونت بعض الصداقات، وانضممت إلى نادي القراء ، وشاركت في بعض الفعاليات الثقافية.

فاقترحت على اللجنة المنظمة للحفل تنظيم مسابقة ثقافية من ضمن فقرات الحفل. وافق أعضاء اللجنة مشترطين أن أضع أنا الأسئلة.

وجاء يوم الحفل. وبعد الظهر بدأ توافد الطلاب والطالبات المتأنقين بشدة .وظهرت آرين بثوب محلي أسود ورداء أصفر، تزين صدرها قلادة ذهبية كبيرة.. بينما يتزنر خصرها بحزام ذهبي هو الآخر، والكثير الكثير من مساحيق التجميل كانت تغطي وجهها رغم أنها لم تكن في حاجة إلى كل ذلك.

غطى حضور آرين على كل جميلات الحفل، فالجميلات في ذلك الحين كُنّ يرفضن المبالغة في التبرج، ويعتبرن ذلك منافياً لقواعد السلوك التي تربينَ عليها.

وأطل الفارس المحبوب من بوابة الكلية الخلفية ببدلة سوداء وربطة عنق صفراء . يبدو أنهما كانا متفقين على ألوان الثياب . انضم أيوب إلى فتاته، لم يلحظ وجودي ،فكيف لي أن أكون مرئية في حضرة مارلين مونرو خاصته . كنت أرتدي فستاناً أسود بأطراف مذهبة تزين عنقي سلسلة ذهبية لا تكاد تُرى. دخلنا القاعة، وبوصفي عضواً في لجنة تنظيم الحفل بقيت واقفة مع باقي الأعضاء في الفضاء الصغير المفضي إلى مدخل القاعة، انضم إلينا أيوب ،تسارعت دقات قلبي لكنني نجحت في كبح انفعالي، نظر إليّ مطولاً، كمن يبحث عن عملة معدنية سقطت منه، قاطعه زميلنا توفيق، ممثل اتحاد الطلبة :

نسيت أن أعرفكما إلى بعضكما :

- مريم نجيب، أيوب حيدر . قال توفيق .
- أهلاً وسهلاً تشرفنا. قلناها في اللحظة ذاتها.
- أظن أننا التقينا من قبل!

_سؤال أم جواب؟ قلت في نفسي.

_ لكنني عاجز عن التذكر.

لا إجابة من طرفي فقط ابتسامة غبية تليق بغباء الموقف.

بدأ الحفل،وتوالت الفقرات، ثم جاء موعد الفقرة الثقافية ...

كان هناك فريقان... A وB

وأنا أطرح الأسئلة وتوفيق يدون النقاط على اللوح،

السؤال الأول، تبدأ أرينا تعرفنا بنفسها ثم أسألها:

اذكري أحد مؤلفات جين وبستر؟

.....

لا إجابة فأوجه السؤال إلى فريقها الذي يترأسه فارسها المحبوب؛عدوي اللدود ، أجاب أيوب، شعرت أن شيئاً في داخلي تحطم، هل يتعمد إغاظتي، أم ماذا ؟ أحدق في عينيه وأقول ماذا قرأت لها ؟

_ كل أعمالها، أجاب بكل تلقائية.

تتقطع أنفاسي. وأعود لاستكمال المسابقة، وتنتهي المسابقة من دون أن تجيب آرين عن أي سؤال.. طيلة وقت المسابقة وهي تضحك وتضحك فقط.

وبعد الحفل غادرت محملة بخيبات العالم كله، المشكلة، يا أيوب، و رغم أنك أيوب بكل ما تحمل من عبقرية وحُسن تكوين لا تزال آدم؛ ذاك الذي ينجذب إلى الحمقاوات.

والماكرات بما يكفي ليمثلن العمى ، لعلك تساعدهن على عبور الشارع.

عادت الأيام إلى وتيرتها الطبيعية... مختبرات... محاضرات.. محاضرات متراكمة... ركض من بناية إلى أخرى.. لا وقت لدي لمشاكسة أيوب .

انتهى العام الدراسي من دون أن يتذكرني أيوب. هل ذاكرته ضعيفة إلى هذه الدرجة! كيف نسيني؟ . نسي حتى اسمي! خلصت إلى أنه

لا يظهر الحقيقة وأنه يذكرني جيداً لكنه يتنكر لمعرفتي. عاهدت نفسي مرة أخرى على أن أتجاهله بالكامل .

أمضيت ذلك الصيف بين المحكمة، ودائرة الأملاك، ومديرية البلدية والزراعة، إجراءات ليس لها آخر. حصر تركة أبي وأملاكه... وأملاك أمي تمهيداً لنقلها إلى ملكيتي ساعدنا في ذلك محام شاب، ربما يكبرني بخمسة أعوام. مازن كان هذا اسمه. شاب في منتصف العشرينيات؛ قصير القامة بكرش صغير، و بوادر صلع مبكر.

كنت في البداية أناديه أستاذ مازن، وحين تكرر وجودنا معاً، سواء في دوائر الدولة أو أثناء زياراته المتكررة لنا في البيت، حُذفت الألقاب تلقائياً وصرت أناديه مازن من دون تكلُّف. كنت أشعر أن غيوم الإعجاب تلبد سماء مازن من ناحيتي، لعنت ظني، وظللت أتعامل معه على المنوال نفسه وكأنني لم ألحظ شيئاً.

أوشك الصيف على الانتهاء، وأتممنا أخيراً إجراءات حصر التركة، علمت حينها أن الأرض التي كان أحمد يتعلم السياقة في فضاءاتها كانت ملكيتها تعود إلى عائلتي، والمزرعة التي خرج الجرار منها يوم مقتل أبي وأخي كانت لأبي. أراض شاسعة عمارات في وسط المدينة. بيتان عدا بيتنا الذي كنا نعيش فيه، أحدهما في الحي القديم كان هو البيت الذي ولد فيه أبي وأعمامي وتربوا، والبيت الآخر يتوسط مزرعة في أحد الضواحي، كل هذا وأنا أعيش على ما تجنيه خالتي المسكينة من التطريز والحياكة. كم أتمنى لو أنني أستطيع التماس أي عذر لناريمان! إذا كنت أريد أن أسامحها على نسيانها لي، وهواني عليها وقسوتها علي ، كيف سأغفر لها حرماني من كل هذا ؟ كيف

استطاعت أن تنعم بكل هذا النعيم، بينما أمضي إلى مدرستي بحذاء مثقوب في الأيام الممطرة ؟ لا أظن أنني يوماً ما سأجد ذريعة لأسامحها.

كانت أمي قد كتبت وصية قبل وفاتها تنص على أن تنتقل الأموال المنقولة وغير المنقولة كافة لي، ولكن بشرطين أولهما أن أبني مسجداً يحمل اسم أحمد أخي –رحمه الله– وثانيهما أن أؤسس مشروعاً خيرياً من أي نوع تحت الاسم ذاته... أحمد نجيب صديق آغا .حين تلا علينا المحامي نص الوصية،عبثت التساؤلات في عقلي، لماذا لم تبادر ناريمان بنفسها إلى تأسيس مشروع خيري وبناء جامع على روح أحمد، لماذا أجلت المهمة حتى أتولى أنا تنفيذها!

بدأ المحامي البحث عن أرض لبناء مسجد ، وقررت أن أبني داراً لرعاية الأيتام وضحايا التفكك الأسري ليكون المشروع نواة لمؤسسة خيرية بنية الثواب المُهدى إلى روح أحمد.

مسكين أحمد لقد كان هو الآخر ضحية لذكورة المجتمع "الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون" لو أن والديّ سامحهما الله، كانا قد زرعا في نفس أحمد أننا أخوة، ولا فرق بيننا. لما كان منه ما كان من اضطهاد لي، ولما كرهته بدوري. الرجل هو أحد ضحايا المجتمع الذكوري.

باشرنا بإجراءات نقل الملكية، ومازن معنا خطوة بخطوة، و قد صار إعجابه بي بادياً، حتى أضحى التجاهل لا يجدي نفعاً.

وفي أحد أمسيات أيلول اتصل مازن؛ ليخبرني أن بيتين متجاورين في المدينة القديمة معروضان للبيع، وفي مقدورنا شراؤهما ، وإزالتهما ثم

بناء مسجد على الأرض . وراح يشرح لي أنها صفقة رابحة وستوفر الكثير من المال ، وخلال ساعة كان قد وصل ليقلنا بسيارته الصفراء نوع فيات أنا و زوج خالتي لمعاينة المكان . عبرنا دجلة من الجهة الشمالية عبر ما يسميه أبناء المدينة الجسر الثالث، أو جسر أبي تمام وما إن عبرنا الجسر حتى لاحت لنا لافتة معدنية كتب عليها شركة المُلا للمقاولات.

- سيبنون فندقاً هنا في هذه البقعة على ضفاف دجلة.

قال زوج خالتي.

_ فندق الملا. قال مازن بعد أقل من دقيقة لاحت أضواء المستشفى العام، أو مستشفى ابن سينا كما سميت فيما بعد بطوابقها السبعة، ما زلت حتى وقتي هذا استشعر سكينة كبيرة كلما مررت من أمام البناية حتى بعدما استحالت إلى ركام، فالذكريات الجميلة تشبه الأرواح الطيبة تظل تدور حول أماكن حدوثها.

وبعدها أطلت محلة الشفاء لتكون كلية الطب ومتوسطة الشيماء للبنات أولى معالمها.

كلية الطب جامعة الموصل. أُسست العام ١٩٥٩. هذا ما كان مكتوباً على بوابتها، نزولاً إلى تقاطع الشفاء مع شارع ابن الاثير، وقفنا بضع ثوان عند الإشارة الضوئية، ثم إلى دورة قاسم الخياط، ثم نفق الجسر الخامس، ثم إلى شارع الفاروق، توقفت السيارة عند الدرج الاسمنتي المفضي إلى محلة الشيخ فتحي والأحمدية، أو ما يعرف بسوق اليهود، دروب متعرجة وأزقة ضيقة، وصلنا إلى البوابة المقوسة، تعلوها نقوش أجهل معناها . فتح مازن الباب، بينما يقول:

- جلبته من صاحب العقار. مشيراً بالمفتاح الأثري.

يفتح الباب مصدراً صريراً عالياً، القنطرة ذاتها، بوابة السرداب نفسها حيث كانت نانا فاطمة تقف لإعداد الشاي.

الإيوان يتوسط شبابيك الغرفتين ... الفناء الدرج المتهالك وشجرة الليمون العجوز تتوسط المنظر، صنبور من الطراز القديم و الماء يتقاطر إلى الحوض حين تنام جذور الشجرة العجوز .

كل شيء في البيت كان قد شاخ وتقدمت به عجلة الزمن إلا شجرة الليمون كانت لا تزال كما كانت منذ عقدٍ مضى.

أسمع مازن يتحدث عن إمكانية الحصول على البيت بسعر زهيد كونه مسكوناً، ويسترسل قائلاً علينا أن نغادر قبل حلول الظلام قبل أن يظهر المارد، إنه هناك، يقول ضاحكاً بينما يشير إلى باب السرداب... أقول في نفسي المارد غادر... لم يعد موجوداً.

بعد جولة سريعة في المنزل، غادرنا، ولكنني أعبر قوس القنطرة ليس كمريم اليوم... لا بل عبرته كما عبرتُ قبل سنوات مع أيوب. يقترح مازن أن نفتح البيت المجاور، فرفصت متحججة بالخوف من المارد.

غادرنا المكان، بينما يحيط بي صخب الأيام السالفة، صوت أيوب يقرأ عمود عزيزي عزوز من مجلة ألف باء ... يوسف يدور حول نفسه... ويرفرف كعصفور يحاول الطيران بينما تكتسي الأرض ببتلات القداح (أزهار الليمون)، ثم طرقات على الباب، وأمجد ينادي أيوب متكئاً على الواو كعادته.

كيف استطاع أيوب أن ينسى كل هذا؟ لا أدري.

قطعت عهداً على نفسي أن أشتري البيت، عدنا أدراجنا في الطريق ذاته، وعبرنا الجسر بأقواسه الثمانية، ووصلنا إلى غابات الموصل، كان كل شيء حينها جميلاً. ربما حدث ذلك قبل أن يولد القبح. قبل أن يقطع الجياع أغصان الأشجار. ليوقدوا منها ناراً.

ركن مازن السيارة عند أقرب كشك متعللاً أن العطش قد نال منه، فتطوع زوج خالتي بالنزول نيابة عنه لإحضار ما نشربه، شممت رائحة مؤامرة!

وما إن أغلق زوج خالتي الباب، حتى التفت مازن إلى المقعد الخلفي حيث أجلس:

- مريم... عندي موضوع أود التحدث إليك فيه، قال مازن و العرق يتفصد من جبينه ودون أن أجيبه يدخل في الموضوع وكأنه كان قد ذاكر ما سيقوله جيداً.
- أنا معجب بك، وسأكون محظوظًا لو ارتبطت بإنسانة في مثل أخلاقك وعلمك وأصلك.
- وأموالك، قلت في نفسي هازئة...

آخذ نفساً عميقاً لاستحضار الحجج المتاحة لرفض عريس.

وقبل أن أفتح فمي قال مازن :

_ لا تتعجلي الرد، فأنا لست في عجلة من أمري، خذي راحتك في التفكير .

ابتلعت لساني بينما أقول لنفسي "لا أظن الموضوع يحتاج إلى التفكير".

ظهر زوج خالتي من بعيد، وهو يحمل علباً معدنية لمشروب غازي نوع سين كولا.

وصلت إلى البيت متعبة، وكأني وضعت ذكريات المكان في كيس وحملتها على عاتقي إلى هناك.

استقبلتني خالتي، ووجهها ينطق بالكثير من الأسئلة. يبدو أن الجميع كان متفقاً في تلك الليلة، المؤامرة كانت أكبر مما تصورت .جلست أمامي، وسألتني:

– ماذا فعلت؟

– في ماذا؟

– في كل شيء.

– لا شيء...

– مريم!

– قال إنه سينتظر.. اتركيني وشأني أرجوك .

– مريم! إنه شاب طيب... ومن عائلة.

– هل مازن أهلٌ لي؟ هكذا ترينني؟ ألا ترين أنني أستحق الأفضل ؟ قلت بغضب .

كعادتها خالتي تدير كفة النقاش الجاد ليتحول إلى مسرحية هزلية فتقول هازئة :

_ نعم.. نعم.. أعتقد أنك تستحقين شاباً أفضل.. شاباً أطول ويفضل أن يكون بشعر منكوش .

ضحكت، وانتهى النقاش عند هذا الحد .

اتصلت صباح اليوم التالي بمازن وأخبرته أن يتفق مع صاحب العقار، لأنني أريد شراءه، ولا أريد البيت المجاور، وأخبره أن يبحث عن قطعة أرض أخرى في جانب المدينة الأيسر من أجل بناء المسجد.

- وماذا ستفعلين في بيت المارد؟ سأل

– اتركه لي...

وأنهيت المكالمة على عجل.

مرّ الخريف مسرعاً، وحلّ تشرين من جديد واعداً أو متوعداً لا أحد يدري.

بدأت المرحلة الثانية من كلية الطب، الوضع مختلف هذا العام، فقد زالت رهبة المكان والأشخاص إلى حد ما.

وصارت اللغة لعبتنا.

وفيت بوعدي لنفسي، أصبح أيوب كائناً غير مرئي بالنسبة إليّ، ويوماً بعد يوم توقفت عيناي عن الدوران في كل الاتجاهات بحثاً عن شعره الغاضب، و ظله الطويل. مرة أخرى تحررت منه ولكن كم ستدوم حريتي؟

لم يخلف الشتاء موعده، ككل عام وصل في ميعاده. في صباح ماطر، بسماء رمادية وعلى صوت فيروز تغني: "أديش كان في ناس ع المفرق تنطر ناس" ،يتردد صداها في نادي الكلية. والبخار المتصاعد من كوب الشاي يغطي زجاج نظارتي، فأنزعها لأمسح عتمتها، أرفع ناظريَّ لأرى صاحب الظل الطويل يطل من بعيد يحمل مظلة. تبتسم فيَّ مريم الطفلة ذات الثماني سنوات تلك التي شاركته

ملاعب الطفولة ومقاعد الدراسة. رقص قلبي بين ضلوعي. يقترب أكثر فتتضح الرؤية أكثر. لِأرى آرين تحتمي معه تحت ذات المظلة، كتمت آهاتي، وشاغلت نفسي ببعض الأوراق والكتب، وبينما تنشد فيروز قائلةً:

"نطرت مواعيد الأرض. ما حدا نطرني"

عبرت باب النادي خارجةً ؛لأقطع الطريق إلى باحة الكلية تحت قطرات المطر بوجدان منكسر.

تهت بعدها في دوامة الدروس والمحاضرات. وككل يوم تكون الخالة في انتظاري. تستقرئ وجهي وملامحي، ولكنها تكتفي بالصمت، لكنها ذات يوم وبعد العشاء، قالت:

- أخبار أيوب؟
- أي أيوب؟ واصطنعت المفاجأة.
- أيوب. تقول بينما تحرك زاوية فمها اليمنى.
- موجود.
- تكلمي مريم .... تكلمي... أعلم أن الحكاية فيها أيوب.
- إنه لا يتذكرني... لقد نسيني يا خالة! وأسرد كل شيء عن لقائنا الوحيد يوم حفل التعارف وكيف لم يتعرف إلي، وأنه على علاقة بفتاة أخرى...
- لا أرى شيئاً يدعو إلى كل هذا الغم الذي أنت فيه.
- كانا يحتميان من المطر تحت المظلة نفسها!

- ولماذا تقولينها، وكأنك قد ضبطتهما في السرير؟ ضحكت خالتي حتى دمعت عيناها، ثم استأنفت الحديث بعد انتهاء نوبة الضحك قائلة :

- حبيبتي... يبدو أن الروايات والمسلسلات قد أفسدت عقلك! ما كل هذه الشاعرية التي أنت فيها؟ ما كل هذا الكبرياء والتحامل ؟ أخبريني يا جين آير أرجوكِ؟ ضحكت بسخرية، واستأنفت:

-الحب في الواقع لا يشبه الحب في الروايات التي قرأتها، العلاقات على أرض الواقع مختلفة تماماً، قبل كل شيء كما تصفين تبدو الفتاة متحررة ومن الممكن جداً أن يكونوا مجرد صديقين، فهما من ملَّتينِ مختلفتين واقترانهما أمر مستبعد في مجتمعنا. ولو فرضنا أن أيوب نسي مريم ١٩٨٠ أياً كانت الأسباب سنسميه نسياناً فحسب دون التطرق إلى الأسباب . لماذا لا تسمحين له بمعرفة مريم ١٩٩٠ ؟ أعطه الفرصة... وقد يحدث توافق كالذي حدث منذ عشر سنوات.

ما الذي كنت تتوقعينه من شاب وسيم تتجاهلينه ، إنك تتهربين منه وتتحاشين الوجود في مرمى نظره. اسألي نفسك كيف كانت مريم ١٩٨٠ لتتصرف اليوم ؟ كوني على طبيعتك حبيبتي مريم ،وأنا متأكدة أن الجميع سيحبونك، ليس أيوب فقط. قالت العبارة الأخيرة بينما تغمزني بعينها.

مضى الأسبوع من دون أحداث تذكر، فقط اتصالات مستمرة مع مازن من أجل الاطلاع على آخر مستجدات شراء بيت شجرة الليمون.

شمس

- مم يتكون الكون يا أيوب؟
- الشمس وتدور حولها الكواكب.
- وما هي الكواكب، يا حبيبي؟
- الشمس وندور حولها نحن، بابا ونانا ويوسف وأيوب.

ضممته إلى صدري صغيري الحبيب.

أيوب هو أجمل أقداري، إنه أبي الذي لم أره، وأخي الذي لم يولد وعائلتي التي لم تشأ الأقدار لها أن تجتمع.

قال أيوب إنني شمسه، وإنه يدور حولي، والحقيقة هي أنني أنا من أدور حوله، فأحلامي وآمالي، أمنياتي و مستقبلي الذي أطمح إليه، كلهم أيوب. وبعد انطفاء نجم يوسف وتوحده ازداد تعلقي به، صار يمثل جانب عالمي المشرق ونصف كأسي الممتلئ. لكن الأولاد يكبرون بسرعة.

أيوب الآن في الحادية عشر من عمره ودون أن أسأله عن عالمه، صرت أدرك أن كوكباً دخيلاً قد انضم إلى مجموعتنا.

جاءت مريم... ذهبت مريم... هذه لمريم.. أخبرت مريم...

سألته مرة:

- لماذا لا تصادق الأولاد ؟
- وما الفرق برأيك... أنا أصادق من يشبهني؛ ولداً كان أم بنتاً، ألست أنت من تنتقدين المجتمع الذكوري؟
- آه حقاً أتشتري مني الماء، ثم تبيعه لي ثلجاً أيها المشاكس!

بحثت كثيراً عن أي مسوغ أو مبرر لكراهيتي للفتاة المسكينة فلم أجد، وكنت كل يوم اختلق لضميري ذريعة جديدة أسكته بها، فتارة أقول أخشى أن تلهيه عن دروسه. وتارة أقول أخاف على سمعتها، وأعود في النهاية وأصدُق نفسي وأقول: إنني لا أحبها وحسب .

ومرة أفصحت لحيدر عن قلقي حيال صداقة أيوب لمريم. وكيف أني لا أحب دور الولد المندس بين الفتيات. ضحك حيدر مني وسفّه رأيي، وقال إنها رجولة مبكرة على عكس ما يصوره عقلي.

وذات يوم عاد أيوب يحمل لفافة من ورق ملون يبدو أنها هدية دخل، مسرعاً وخبأها بينما أراقبه من المطبخ.

- ماما.
- أنا هنا في المطبخ تعال.
- أحضرت هدية لمريم.
- لا أظنها ستقبلها.
- لماذا؟
- الفتيات المؤدبات لا يقبلن هدايا من الأولاد. أجبت بحزم .
- وما الحل؟ قال يائساً.
- أقدمها أنا إليها، ولكن ، أي نوع من الهدايا؟
- كتاب، قصة اسمها "عزيزي صاحب الظل الطويل".
- غداً نقدمها إليها أنا وأنت. اتفقنا؟
- اتفقنا.

تركني أيوب، لاستكمل ما تبقى من الحوار مع نفسي.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت معه إلى المدرسة. وما إن رأتنا الفتاة حتى توارت عن الأنظار.

لم أستطع أن أتظاهر بالدفء، أو أن أمثّل أي مشاعر جياشة كاذبة في أثناء إعطاء الهدية للفتاة . كان مجرد خطاب جاف عن تذكار نقدمه لها لأننا سنغادر الحي غداً. ولن نلتقي بعد الآن . قلت العبارة الأخيرة بينما تخترق عيناي ناظريها . أحسست أنها رغم صغر سنها فهمت ما كنت أرمي إليه. ثم بعد أن مشينا بضع خطوات مبتعدين لحق بها أيوب وهمس لها ببضع كلمات، ثم ناولها شيئاً كان يحفظه في مقلمته، وعاد نحوي .

كان الحزن بادياً عليه .

انتقلنا إلى البيت الجديد، وحادثة فقدان يوسف لا تزال تلقي بظلالها على العائلة ... تكفلت الجدة بمراقبة يوسف لحظة بلحظة. بعد حادثة خروجه من المنزل كانت تراقبه حين يلعب تتأكد من قفل الباب كل ساعة. تطعمه تنوِّمه تضعه في الأرجوحة وتهزه حتى ساعات الليل كان ينام بين ذراعيها. شعرت أن حزن الجدة على ما أصاب يوسف. طغى على كل الأحزان التي مرت بها طوال حياتها .

ما زلت أذكر حين كان يوسف في السابعة، وهو بعد لا ينطق ولا يتواصل. انتابته نوبة غضب عارمة. وراح يركض في كل اتجاه ويصرخ والدموع تنفر من عينيه. وفجأة توقف وراح يضرب رأسه في زجاج النافذة، حتى انكسر الزجاج، وجرح جبينه. عانقتُ يوسف يومها وأنا أبكي حتى امتزجت دموعي بدمه . امتنعت الجدة عن أي طعام ليوم كامل.

وحين كنت أستيقظ من نومي ليلاً أسمع الجدة تصلي وتبتهل إلى الله من أجل نجاة يوسف مما هو فيه بينما يتهدج صوتها وتخنقها الدموع .

وحين يشتد المرض على يوسف وتسوء حالته كانت تنأى بنفسها عن الجميع و تجلس ساهمة بينما ترتل ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ يوسف: ٨٥

بعد أن استقر أيوب واعتاد على البيت الجديد عاد إلى ذكريات مريم، وصار يلح على أن نذهب لزيارتها في بيت خالتها.

فأخبرته أنني سمعت من صديقتي أنهم انتقلوا إلى بغداد _كذبت _

وحاولت بعدها بكل الطرق أن أنتزع ذكرى الفتاة من عقله،

سألني مرة عن اسمها الكامل الذي ما عاد يذكره. أخبرته أن اسمها مريم محمد أحمد. كان أيوب ذكياً بما يكفي ليشكك بصحة ما أقوله، لكنني أصررت على رأيي وتعمدت إعادة الاسم الذي اخترعته في مناسبات عدة حتى ينسى اسمها الحقيقي.

مرت الأيام. وأيوب يتذكر كلما استفزته الذكريات وأنا أقمع حنينه ، حتى ذلك اليوم حين تحلقنا حول المذياع ننتظر إذاعة نتائج الامتحانات العامة للدراسة الابتدائية . كان أيوب الأول بكل فخر .

ما إن قرأ المذيع الاسم حتى صفق الجميع، حتى يوسف راح يقفز ويصفق فرحاً . كان يوماً من أجمل أيام عائلتنا .

يومها خنقت دموع الفرح جدته فلم تتمكن من إطلاق هلهولتها الصادحة، وعانقت أيوب في فرح غامر ودموعها تنسكب.

جلسنا بعدها ننتظر سماع أسماء أصدقاء أيوب، وحين قال المذيع ٣١_ مريم نجيب صديق المعدل ٩٨٪

كاد أيوب يقفز من مكانه، لكن شيئاً ما أوقفه أظن أن جزءاً منه كان لا يزال يتذكر هذا الاسم.

هكذا اجتثثتُ عامدةً ذكرى مريم من عقل أيوب.

في ذلك الصيف كانت زينب تدب في أحشائي، وتكبر يوماً بعد يوم. وفي اليوم الأول من العام الدراسي اضطررت للذهاب إلى المدرسة حيث أعمل لتقديم إجازة الوضع. وقفت بينما الطالبات يقفن في الطابور . وإذا بمريم بينهن . وحين قرأت معاونة المديرة اسمها . دار حديث جانبي بين المدرسات عمن هي مريم؟

قالت مدرسة تعرف عائلتها إنها ابنة العقيد الطيار نجيب صديق آغا، جدها صديق آغا من أعيان مدينة الموصل، مات أبوها وابنه الوحيد في حادث سير مروع، وكيف أن مريم شهدت الحادث بنفسها، ومات أحبتها أمام عينيها، وخرجت من تحت مخلب الموت بأعجوبة، ثم لم تنته معاناة اليتيمة عند هذا الحد، فقد عذبتها أمها أشد العذاب إذ أجبرتها على ارتداء السواد وهي بعد في الخامسة من عمرها ، عدا الضرب والتعنيف حتى تطوعت خالة الفتاة أن تأخذها وتربيها. وقالت إن خالتها فقيرة الحال تعمل في الحياكة وتطريز المناديل والشراشف... وبصعوبة تستطيع أن تسد رمقها ورمق الطفلة التي حرمتها أمها حتى من حقها في أموال عائلتها.

دار هذا الحديث في غرفة المدرسات، بينما كنت أحتسي كوباً من الشاي مع زميلاتي، بكيت وقتها بحرقة على المسكينة التي ظلمتها

أمها و قدرها، ثم أتيت أنا وأتممت ما بدأ به غيري . عزت المدرِسات بكائي على مريم إلى هرمونات الحمل، ولا أحد يعلم أنه كان الإحساس بالذنب.

عدت إلى البيت عازمة على مصارحة أيوب بكل الأكاذيب التي اختلقتها وحدثته عنها. لكن كيف كنت سأخبر طفلاً في الثالثة عشر من عمره أن أمه ومثله الأعلى وشمسه التي يدور حولها على حد وصفه، كانت كاذبة، وليس هذا فقط فقد كانت جزءاً من مجموعة جلادين يتوالون على تعذيب طفلة يتيمة.

كان الإحساس بالذنب يعاودني كلما ذكر أيوب مريم التي لا تغيب طويلاً عن أحاديثه، لكنه لا يعلم أنه يبحث عن مريم أخرى وهمية غير التي يعرفها، فمريمه غيبتها أنا .

وفي تلك الليلة وضعت زينب...

كانت زينب صورة طبق الأصل عن جدتها فاطمة. جميلة بيضاء البشرة، خداها متوردان، وعيناها تحتلان مساحة كبيرة من وجهها ؛ والحنان والمحبة وكل الأحاسيس الجميلة تتدفق من قلبها كما تتدفق مياه النهر .

حين رأى حيدر زينب للمرة الأولى وحملها بين يديه. ابتسم ثم راح يتأمل وجهها الجميل كالقمر، قبل جبينها والتفت إلى أمه:

- طبق الأصل يوم. في إشارة إلى شبهها الكبير بالجدة.

اكتفت الجدة بابتسامة حنون للتعبير عن فرحها كون الصغيرة ورثت ملامحها، اعتاد كل من حيدر وأمه مناداتها زينبي. وصار حيدر يضعها على حجره مساء كل يوم بعد العمل، فيغني لها وينشد لها

أشعاراً، كان يصاب بالإحباط حين يعود من عمله فيجدها نائمة، وما إن تستفيق حتى يستقبلها بالأحضان، ويضمها إلى صدره مردداً :

- ها قد استفاقت حبيبة أبيها.

كان يلاعب زينب، ويلتفت بين الفينة والأخرى إلى يوسف الجالس هناك يراقب بابتسامة بريئة.

- تعال، يا يوسف، تعال، يا حبيبي .

ولكن يوسف لم يكن يقوى على الاقتراب، إنه فقط يراقب عن بعد، وفي كثير من الأحايين كان يناولني زينب، ويذهب إلى يوسف، فيحاول ضمه أو اللعب معه.

فيجابه في معظم الأحيان بالرفض أو التجاهل. فيعود حيدر إلى زينبه.

كانت أشهر زينب الأولى قاسية على يوسف، ربما كان يغار من وجود طفل جديد في البيت. ازدادت حدة نوبات الغضب والرفرفة. واضطرابات النوم، ولحسن الحظ كان يستجيب لتراتيل جدته بشكل سحري عجيب.

وما إن كبرت زينب حتى انضمت إلى جدتها في كل نشاط تقوم به. تتبعها في كل مكان وتفعل تماماً ما تفعله. صارت تحفظ تراتيل الجدة وأدعيتها عن ظهر قلب. تنهض قبل شروق الشمس وتغادر سريرها لتنضم إلى الجدة في غرفتها فتجلس إلى جوارها، وتفتح كفيها الصغيرتين وترفعهما إلى السماء، وتتمتم مع جدتها أدعية الصباح وأدعية التحصين، ثم تنفخ فيما حولها كما اعتادت الجدة أن تفعل، وحين يستيقظ يوسف تغمره الجدة بكل كلمات الترحيب والحفاوة،

وعبارات الحب، تقلدها زينب في كل ذلك؛ كأن القدر أراد أن يهيئ لنا ماما فاطمة جديدة.

كانت حصتي من معاناة يوسف تقتصر على الجانب العاطفي، الحزن ، الألم ، والقلق على مستقبله المجهول، بينما تولت جدته الجانب العاطفي والروحي والجسدي فكانت تطعم يوسف بنفسها، حتى عمر متقدم ، وفي سنوات اضطرابه كان لا يطلب الماء، فكانت تضع جدولاً زمنياً لشرب الماء لأجله، فكل نصف ساعة تعطيه نصف كوب ماء من دون أن يطلب لأنه باختصار لا يستطيع أن يقول إنه ظمآن .وقد بذلت مجهوداً خرافياً في تعليمه الاعتماد على نفسه في كل شيء الحمام ، الأكل، الشرب والنوم.

كانت تحرص دوماً وفي ساعات هدوئه على أن تضع إلى جواره ورقة وقلم فتغريه باستخدامهما، مكررة عبارة يوسف يرسم بينما تمد إليه القلم ، حتى جاء اليوم الذي أمسك فيه يوسف القلم ورسم خطاً على الورقة ، تكرر الفعل مراراً حتى صار يوسف يرسم ويشخبط معظم وقته. أضاف اكتسابه لهذه العادة الكثير من الهدوء إلى طباعه، فأقلع عن عادة تدوير الأشياء، وخفت نوبة الصراخ وتباعدت نوبات الغضب حتى اختفت بالكامل بعمر ١٢ عاماً، تحول يوسف من الطفل الغضوب المنزوي إلى فتى صموت لا تكاد تميز اضطرابه.

كل هذا كان بفضل الله والجدة .

كبرت زينب وهي تعتقد أن أيوب ويوسف هما ابنا الجدة، فإذا جاء أيوب تقول لجدتها

- نانا ابنك جاء.

فتضحك الجدة في سعادة كمن حصل على كل تمناه.

وإذا بكى يوسف كانت تخاطب الجدة قائلة:

–ابنك يبكي.

فعلاً، إنه ابن الجدة، الجدة التي رعته واحتضنه في ضعفه، ليس لتقصير مني ولكن لفيض حنانها وعطائها. فماذا أكون أنا أمام كل هذا الحب والحنان! قد أكون جدولاً صغيراً، ولكنني لا أعني شيئاً أمام البحر، نعم كانت ماما فاطمة بحراً لا ينضب يضم كل المعاني الجميلة.

حين دخل أيوب كلية الطب، وفي أيام الكلية الأولى . كان يبحث عن مريم، بحث عنها أولاً بين أسماء الطلبة المقبولين وحين لم يجدها، بحث في قوائم الكليات الأخرى والجامعات. ولا أثر، لم يكن يعلم أنني ألقيتها بنفسي في غيابة الجب...

تعرف بعدها إلى فتاة جميلة . لكنها لم تستطع أن تأخذ مكان مريم .

وحين طلبت إليه أن يدعوها إلى زيارتنا أجاب ببرود :

_ لا داعي إلى ذلك.

وفي ذلك الشتاء بدأت صحة الجدة تتعب، قلَّت حركتها وصارت أنفاسها تتقطع لأي جهد تبذله ، فلازمت الفراش.

قال الطبيب إنها مصابة بعجز في القلب، و وصف لها الكثير من الأدوية والعقاقير.

وحين ساءت حالتها انتقلت للنوم في غرفتها، بعد أن انتقل يوسف للنوم في غرفة مستقلة .

كنا جميعاً نتحلق حول فراشها. زينب ويوسف يلازمانها طوال النهار ولا يبرحان غرفتها حتى تنام ليلاً.

بينما أيوب منكب على مذاكرة دروسه ومحاضراته، يطل عليها بين حين وآخر .تكرر نقلها المستعجل إلى المستشفى مرات عدة. علمنا أنا وحيدر أن النهاية قريبة، فأشفقنا على أنفسنا من دنيا تخلو منها . لم أسمح لهواجس رحيلها أن تتمكن من عقلي، كنت أكبح كل خيالات رحيلها وأطردها من مخيلتي بآمال كاذبة بالشفاء أعلم علم اليقين أنها لن تتحقق.

وذات ليلة ازدادت أنفاسها تسارعاً، وكادت تختنق فحملناها إلى المستشفى على عجل. وبعد ساعة من تلقي العلاج، هدأت أنفاسها وبدأت تتحسن، وأمضينا الليلة في المستشفى.

وما إن طلع الصباح حتى نادتني وقالت :

_ أين حيدر ليأخذننا إلى البيت؟

أصرت على المغادرة، رغم معارضة حيدر الذي آثر المكوث ليومين حتى تستقر حالتها، ولكنه في النهاية انقاد لرغبتها طائعاً.

أخذناها إلى البيت... وبينما كنت أضعها في فراشها، قالت:

_ابقَ حيدر عندي كلمتين لك. قالت بأنفاس متعبة.

طلبتُ من زينب أن تأخذ أخوها ويغادرا الغرفة.

تكورت في سريرها، وأنفاسها تتقطع، وقد ومرت دقائق طويلة من الانتظار... والصمت.

ثم بدأت بالكلام

_ حيدر يوم ..... ثم صمتت كادت دموعها تخنقها . بينما تشير بيدها كمن يومئ إلى مكانٍ بعيدٍ، وقالت:

_ يم اهلي ...

لم يحتمل حيدر ولا أنا معنى إشارتها، بكينا كطفلين صغيرين يودعان أمهما التي ترفض أن يرافقاها.

وحين حاول حيدر منعها من فتح هذه السيرة، رفعت سبابتها اليمني لتتعامد مع شفتيها طالبة منه السكوت ريثما تكمل ما بدأت به ، وقالت بينما تغلبها دموعها :

_ الله الله بيوسف... (ثم صمتٌ، وأنفاسٌ متقطعةٌ ودموع)

كل ما أملكه من زخرف الدنيا هو ذهب نيشاني، وهو موجود في الدولاب ينقسم مناصفة بين زينب وعروس أيوب إن شاء الله . قالت عبارتها الأخيرة ثم فتحت كفيها ونظرت إلى السماء، وعيناها تتوسلان، لا أدري ماذا أسرت لربها في تلك اللحظة...

تملك الصمت منا فلا كلام يقال كنت أبكي بحرقة وعبثاً أحاول إسكات نشيجي، وأخيراً غادرت الغرفة لألوذ بضعفي بعيداً.

في تلك الليلة غادرت السيدة فاطمة الموسوي عالمنا بهدوء لا يختلف عن هدوء وجودها فيه، فقد ماتت أثناء نومها... استيقظت من نومي في فجر التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٨٩ ،لمست يدها لأوقظها لتأخذ مني حبة الدواء وكوب الماء، فوجدتها باردة كالثلج.

رحلت أمنا ... لم أكن يتيمة وضعيفة في حياتي كما كنت ذلك اليوم، كانت ماما فاطمة لي خير أم وخير عائلة ،وها أنا اليوم أكمل المسير من دونها.

حزن أيوب لرحيلها حزناً شديداً، كان الحزن عند أيوب يعني الصمت والعزلة، ودموعاً تتهادي على خديه من دون سابق إنذار، ومعاودة الحديث مع الذات... صرت كلما أمرُّ به أسمعه يتمتم بكلماتها؛ كأنه يستعيد حواراته معها بصوت مسموع في رغبة لا شعورية منه أن يسمع كلماتها من جديد.

حملت الجدة إلى مدافن عائلتها في مدينة النجف تنفيذاً لرغبتها، رافقنا الجثمان ومكثنا هناك لأيام قليلة بين أخوال حيدر ، ثم عدنا لتلقي تعازي الأصدقاء والمعارف ، كانت ماما فاطمة هي أهلنا واليوم رحلت.

أوجع رحيل الجدة بيتنا، كان الفراغ الذي خلفته في نفوسنا فجوة كبيرة ابتلعتنا، وغيابها شتاء قاسياً لف سماءنا.

بكى يوسف بحرقة يُكسر لها القلب يوم حمل الرجال جثمان جدته ، بكى وكأنه كان يريد أن يقول لهم إلى أين تذهبون بها، ونأى بنفسه عنا، بأوراقه ورسوماته...

بعد انتهاء أيام الحداد تقدمت بطلب إحالتي إلى التقاعد المبكر، وحصلت على الموافقة.

انتهت مسيرتي العملية، التي تلخصت في الإنصات إلى مشكلات الطالبات، وبعض الأمهات أحيانا عنف أسري، علاقات غير مشروعة، تحرش، تهميش الأنثى، ومن بين كل القصص تبقى القصة التي لم تُحكى عالقة في ذاكرتي ربما لأنها لم تُرْوَ . وكنت كلما طُرِق باب غرفتي، أخشى أن تكون القادمة مريم هل جاءت لتكشف لي عن معاناتها؟ كان هذا ما أخشاه. بماذا كنت سأجيب. هل

سأعترف لها أنني كنت من بين جلاديها. هل كنت سأخبرها أنني نلت منها كما نال الباقون.

أيوب

حين غادرت بيتنا القديم شعرت أنني قد ولدت للتو، ولكن، ليس بالمعنى المألوف للولادة من جديد، كما يستخدمه بعضهم بل بمعنى الضعف، فقد لفظني رحم المدينة القديمة ضعيفاً منطوياً على نفسي، بعينين مغمضتين كما لفظ الحوت "ذي النون" على هذه الأرض منذ آلاف السنين

بعد أن كان بيتنا بموجوداته المحدودة عالمي كله، ورحلة عبر شارع الفاروق ذهاباً وإياباً هي أبعد مشاويري. كبر عالمي فجأة و بَعُدَت أسفاري. افتقدت كل شيء؛ المشاوير القريبة "الدرابين" الضيقة والأزقة المتعرجة والجدران المائلة. افتقدت أمجد ومريم.

السطوح هنا كئيبة، والبيوت تطل فقط على بيوت أخرى ولا وجود لقلاع أثرية وقباب تاريخية. صوت خرير ماء دجلة صار بعيداً وعصياً على الإنصات. الأبواب جميعها مغلقة، فلم يعد بابنا الموصد كل الوقت يشكل أي استثناء. حديقة بيتنا مملوءة بالأشجار، لكن رائحتها أبداً لا تشبه رائحة شجرة الليمون العجوز التي ظللت ملاعب طفولتي في بيتنا القديم .

نتعلق دوماً بالأشياء الأولى، المنزل الأول، القطفة الأولى، باكورة الأعمال، والحب الأول.

انقضى الصيف. وجاءت المدرسة. وهناك تعرفت إلى صديق جديد اسمه حسن . قد لا يشبهني حسن في الكثير من الصفات، لكنه كان يُكملني وأنا أكمله كقطعتين متجاورتين في أُحجية . صرنا أنا وهو نتواجد معاً في معظم المناسبات. يعمل والده وأعمامه في سوق السراي . في تجارة المفروشات . في الصيف كنا ننزل سوياً إلى السوق، أنا أذهب إلى مطبعة أبي في الفاروق ويتجه هو إلى خان المفتي.

ينحدر حسن من عائلة متدينة .يحمل الصورة النمطية للشاب المتدين، يصلي في المسجد. ويذهب إلى صلاة الجمعة، أما أنا فعلى الرغم من أنني مؤمن ، وإيماني هذا لا تشوبه شائبة، إلا أن علاقتي بالدين كانت مختلفة بعض الشيء على الأقل حتى رحلت جدتي.

تكونت علاقتي بالسماء في عمر مبكر، لكنها لم تكن نسخة مكررة، اكتسبت معظم معارفي الدينية من جدتي.

كان وجود حسن في حياتي يشبه شجرة اليقطين التي ظللت النبي يونس عليه السلام يوم لفظه الحوت. خرجت أنا من رحم طفولتي طفلاً مثالياً، لا يعلم عن العالم أي شيء، بينما كان حسن يعرف دهاليز السوق دهليزاً دهليزاً، ويحفظ تاريخ بيوتات الموصل عن ظهر قلب... يميز الشواذ عن بعد فيحذرني من التعامل معهم. ويشم رائحة اللصوص والسراق قبل أن يقتربوا ؛ كان بالنسبة إليّ المدرسة التي كان ينقصني ارتيادها؛ فأين كنت سأذهب أنا وأفكاري التي تعلمتها من فيكتور هوجو، و مارك توين؛ و ارنست هيمنجواي و آرثر

شوبنهاور . لو لم يكن هو إلى جواري. كان من الصعب أن أكمل مسيرتي بكل المثالية التي أحملها.

مضت السنون، وانتهت حرب الثماني سنوات، ولم يعد هناك أي شيء يربطني بالحي القديم عدا ذكريات باهتة يغلفها ضباب الماضي عن مريم تلك الفتاة التي ودعتها منذ سنوات وبيدي كتاب وحبة عقيق وزهرة بلورية.

في البداية كنت أتحاشى ذكرها؛ لأن ذلك كان يغضب أمي. غضب أمي ليس ثورةً وضوضاء كما قد تتصورون، إنه غضب من نوع خاص يعتمل في جوفها بهدوء فتفضحه عيناها، كانت تقول لي إنها لا تريد لي أن أكبر بين البنات؛ ومرة أخرى قالت إن هذا قد يسيء إلى سمعتها، فمجتمعنا له ذاكرة فيل، توقفت عن ذكره مريم إرضاء لأمي حتى اعتدت غياب اسمها وصوتها وشكلها عن رفوف ذاكرتي.

دخلت كلية الطب، بينما اختار حسن دراسة الصيدلة في جامعة بغداد.

في شهوري الأولى في الجامعة كأي شاب كنت أبحث عن نصفي الثاني، أبحث عن فتاتي، أبحث عن حب. وشيءَ ما داخلي يسألني عن مريم . علمت من أمي أنهم انتقلوا إلى بغداد . كنت أمنِّي نفسي أن تقبل في كليتنا كالكثير من البغداديين . لم يحالفني الحظ، فاسم مريم غير موجود في قوائم القبول في كل جامعات العراق وكلياته.

ربما تركت مقاعد الدراسة وتزوجت أو قد تكون هاجرت.

توقفت عن البحث عنها ما إن عثرت على آرين . كان إعجابي بها لا يفوقه إعجاب، فتاة شقراء جميلة تشبه نجمات السينما الأمريكية ،

انبهرت بها. جذبتني إليها كما يجذب لهب الشمعة فراشات الظلام. سكن طيفها خيالي في صحوي ومنامي. كتبتُ قصائد في جمالها ورقتها .كل هذا قبل أن نتكلم. ولأكون أكثر دقة قبل أن نخوض أول نقاش جاد بعيداً عن المقدمات وزخرف البدايات. احترق إعجابي بها ما إن اقتربت. صارت مشاعري تشبه مشاعر الطفل الذي ألح على والديه للحصول على لعبة وحين صارت له أيقن أنها لا تستحق العناء. كنت أشبه من نظر إلى مدينة من على متن طائرة فأحبها وحين هبط على أرضها صدمه الواقع. لم تكن فتاةً سيئة قط، ربما كانت فارغة أو قد أكون أنا الممتلئ أكثر مما ينبغي . المهم أننا لم نتفق؛ كنت أشك أحياناً أنها لا تريد أن تستخدم عقلها عمداً. كانت تُؤثر راحتها على كل شيء. قد يكون هذا صحيحاً لكنه لم يناسبني على الأقل على مستوى علاقة طويلة الأمد؛ فتاة متحررة. كنت متأكداً من أنها لا تعي معنى الشعارات التي تنادي بها؛ المواعدة بين الجنسين؛ تباً للعذرية ؛ استقلال الأبناء عن الوالدين بعمر ثمانية عشر؛ استمرت صداقتنا رغم انطفاء جذوة إعجابي بها. كنت أناقشها فأقسو عليها، فتبدأ بالبكاء مرددة شعاراتها النسائية التي لم تكن تفهمها أصلاً.

لفتت انتباهي مريم ربما لشبهها الكبير بمريم صديقة طفولتي، كنت أتمنى لو أسألها عن مريم وعن الشبه بينهما، لكنها كانت فتاة صلبة لا تعير أحداً أي اهتمام. أحياناً كنت أشك أن لديها مشكلات في مدى الرؤية، ربما كانت لا تبصر الموجودات عن يمينها ولا شمالها. لم أستطع حتى أن أحاول الكلام معها وحين كنت ألقي التحية، كانت

ترد بطريقة آلية وكأنها تقول: لا تحاول! لا أدري هل كانت هذه طبيعتها، أم أنها تحمل شيئاً ضدي؟

نجحت الجدة أخيراً في كسر قيود يوسف، وإخراجه من سجنه الذي دام أحد عشر عاماً، تعلم يوسف الرسم، وكان هذا مفتاح لبداية عهد جديد، هدأت طباعه، وقل تكرار نوبات الغضب، واضطرابات التغذية آخذة في التحسن. وأخيراً صار له غرفة مستقلة، لكن الصمت لا يزال يلفه، رسومه تصبح أفضل يوماً بعد يوم، كل شيء كان على ما يرام ؛ حتى سقطت جدتي فريسة للمرض. صار كل شيء يرهقها فتتسارع أنفاسها وترتعش يداها حتى لزمت الفراش و قال الطبيب إن قلبها متعب .

تخيلت قلبها المتعب الذي صار يرهقه مجرد النبض، فأوجعني الهاجس. كيف ستكون الحياة من دونها؟ من دون تلك الشجرة العجوز التي تظللنا! كيف سيكون البيت من دون رائحتها الشبيهة برائحة زهر الليمون التي كانت تملأ البيت القديم في صباحات الربيع!

وحين عاد الشتاء، كانت جدتي قد رحلت، تاركة لنا سجلاً من الذكريات، كانت جدتي عماد بيتنا، وبها وبتضحياتها نشأت عائلتنا وأكملنا المسير.

حملناها أنا وأبي وأبناء عمتي إلى مثواها الأخير وسط نشيج يوسف وبكاء أمي وزينب وعمتي، وأبي يردد لا إله إلا الله بصوته الجهوري، بينما يُغالب عبراته.

كانت تلك المرة الثانية التي أرى فيها دموع أبي. منذ أن ضاع يوسف. لكن دموعه أطالت المكوث هذه المرة.. صار مشهد أبي

يمسح دموعه ما إن أقترب يتكرر كثيراً، و في بعض الأوقات كان يغطي وجهه فحسب، و يرتجف من حرقة البكاء. لا ألومه فعمر بأكمله، قد لا يكفينا حزناً على خسارتها.

مريم

انتهى عام ١٩٨٩... وها نحن نودع عقداً ونستقبل عقداً جديداً، ما زلت أذكر يوم ٣١ _ديسمبر _١٩٨٩

تجمع عدد كبير من طلاب الكلية في النادي، لتوديع العام. كان احتفالاً عفوياً لم يتم التخطيط له. بدأه أحد الزملاء حين نهض واقفاً، وطلب إلى الجميع الإنصات. وبدأ يغنيالأغنية الأكثر شيوعاً وشعبية في ذلك الحين؛(عبرت الشط على مودك وخليتك على راسي) للفنان كاظم الساهر .كان زميلنا يغني بينما نشجعه بالتصفيق وتطوع بعض آخر بتشكيل كورال لترديد اللازمة من بعده. ازداد عدد الطلبة والطالبات، وبدأ كل منهم يدلي بما لديه من مواهب.

أحدهم يستطيع أن يرقص ويتحرك حركات آلية كأنه روبوت، وثالث قرأ علينا قصيدة من نظمه.

لم أعرف متى انضم إلينا أيوب. كان هذه المرة وحيداً من دون فتاته. انتبهت إلى وجوده متأخراً، ربما كان ذلك من حسن حظي، فلو أنني لحظت وجوده منذ البدء، لكنت خسرت الكثير من المتعة والعفوية. كان توفيق ممثل الاتحاد يجلس قريباً من طاولتنا، وكنا نتكلم ونمزح ونطلق النكات من دون أي تكلف.

و حين هممت بالمغادرة تبعني توفيق، وما إن ابتعدت عن صديقاتي حتى استوقفني، بحجة أنه يريد التحدث معي،
لم انتبه أننا كنا لا نزال في مرمى نظر جمهور النادي بأكمله.
تكلم توفيق قائلاً: إنني معجب بك منذ لقائنا الأول، وأتمنى أن تزداد معرفتي بك.
أجبته بأسلوب دبلوماسي من دون أن أجرح كبرياء آدم،
إننا معاً معظم الوقت، وسنوات الدراسة الطويلة كفيلة بأن نعرف بعضنا. ثم استأذنت للمغادرة .

وبعد انقضاء يوم العطلة... عدت إلى الكلية لأتفاجأ بالأحاديث والأقاويل في كل مكان. الكل يقول إن توفيق اعترف لمريم بحبه . حين أخبرتني منال صديقتي بهذا، ضحكت.

- أي اعتراف! وأي حب، يا منال!
- مريم، أنت تخبئين عني كل شيء! ألسنا صديقتين؟ هيا قولي ما الذي دار بينكما بعد ما غادرتما نادي الكلية.

_ لا شيء مهم صدقيني. أجبت.

إعجاب توفيق، وعرض الزواج الذي قدمه مازن منذ شهور أشعراني بشيء من الغرور وربما الإنصاف . فها هي الفتاة المنبوذة تجني بعض الحب ، وعلى الجانب المقابل من مشاعري كان ثمة شيء من الحزن والألم . لماذا لا أستطيع قطف ثمار هذه المشاعر ؟ لماذا لا يمكنني التحليق بها بعيداً؟ لماذا لا أرى في الأفق سواه ؟

كنا في المصعد نقصد الطابق الثالث من بناية عمادة الكلية ، وفجأة فُتح باب المصعد ليظهر أيوب وظهره إلينا وتقف أمامه آرين مسندة ظهرها إلى الحائط، وهي تبكي.

يفتح المشهد شهية منال وإيمان للثرثرة

_ أهلها يرفضون ارتباطها به . تقول منال .

_ هذا الكلام غير دقيق، الفتاة مخطوبة لابن عمها ترد إيمان.

_ وما هو دور أيوب في هذا المسلسل؟ تسأل منال.

_ لقد قالت لأحدهم: إنهم مجرد أصدقاء

اكتفيت بالاستماع، بينما أقارن معطيات مجلس النميمة بما قالته خالتي قبل أيام، الحب في الواقع لا يشبه ما في الروايات.

اكتشفت ألا شيء يخفى على مجالس النميمة. فالمدينة بجانبيها الشرقي والغربي تعرف حذافير قصتي وكيف ربتني خالتي وتحت أي ظروف، والثروة التي آلت إلي مكشوفة للجميع بكل تفاصيلها، تغيرت نظرة المجتمع إلي، لا أدري لماذا ! لا شيء تغير سوى أنني أصبحت وريثة ثرية كأولئك الذين نراهم في أفلام هوليوود. عدا ذلك تناولت مجالس النميمة حياة أيوب بتفصيل أكبر. كانوا يتداولون عنه معلومات لا أعرفها. رغم أننا قد تربينا سوياً .

يوم شاع خبر وفاة جدته حزنت كثيراً فقد كانت مثالاً رائعاً لكل أم، لم تكن أم العم حيدر فحسب بل كانت أم يوسف وأيوب وأمهما وأمي أحياناً، كان كل مريض وكل خائف في الحي يذهب إليها فتقرأ عليه بعض الأدعية والتراتيل وآيات قرآنية، فيخرج من عندها شاعراً

بتحسن. كانت امرأة لا تغضب... لا تتذمر... لا تسيء الظن... امرأة طيبة بحق...

مجالس النميمة كانت تتحدث عن أنها من أهل الفرات الأوسط، أما زوجها فقد كان موصلياً من أبناء طبقة النبلاء. تزوجا في أواخر أربعينيات القرن العشرين، عارض أهل الشاب الزواج ،وحين تم الزواج كانت القطيعة والحرمان من كل امتيازات اسم العائلة من نصيب الزوج وذريته، تحدثوا عن أمه وقالو إنها قروية من الأرياف وفدت مع ذويها إلى المدينة في الخمسينيات. أيقنت أننا نقطن قرية صغيرة فمن يعطس في ساحل المدينة الأيمن، يرد عليه سكان الساحل الأيسر قائلين : يرحمكم الله.

كانت المرحلة الثالثة من كلية الطب مرحلة حساسة ومحطة مهمة في مسيرتنا الدراسية، الدراسة والامتحانات والمحاضرات المتراكمة تشغل كل وقتي، أما عقلي فقد كان يجيد تنظيم أولوياته، فلا شيء يفوته .

انقضى عامنا الدراسي، كما انقضت كل أعوام الدراسة هكذا كحلم جميل في ليلة شتاء دافئة، ولا جديد سوى التغيير في نظرة الناس إليّ، الذي أكسبني شيئاً من اللامبالاة، فحين يدور الدولاب لتصبح في الأعلى عليك أن تنظر حولك أن تستمتع بالمنظر، عليك أن تعيش النشوة المصاحبة لوجودك في القمة ؛ الخوف والتوتر سيضيع عليك الكثير من المتعة والإثارة.

صار توفيق يستوقفني كلما صادفني. ولكننا لم نتكلم على انفراد قط. إما أنْ تكون معي صديقاتي، وإما أنَّ معه أحد من رفاقه، أما أيوب

فقد صرنا نتبادل التحية لا أكثر. لكنني أعرف أيوب جيداً. كنت أشعر أن أسئلة تدور في عقله نحوي، ولكن ما هي؟ لست أدري.

كانت أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات، هي أجمل سنواتنا نحن جيل السبعينيات وربما يشاركنا في ذلك مواليد النصف الثاني من عقد الستينيات، في نهاية الحرب ضمد العراقيون جراحهم، وكفكفوا دموعهم، ونزعت النسوة عنهن ثياب الحداد، فالعراقية لها قلب يخاف المستقبل يخاف من كل ما هو آت، نزعت أمهات الشهداء ثياب الحداد لأنهن أردن لنهر الدم أن يتوقف؛ لأنهن أردنَ أن ينتهي السواد من على هذه الأرض. يوم انتهت الحرب رقص العراقيون ظناً منهم ألا شهداء بعد الآن. رضوا بكل ما فاتهم على أمل أن يكون القادم أفضل. ومر عامان ونيف. والعراق يزدهر، والعمران يعلو، والتعليم بخير، والمستوى المعيشي في نمو، وسعر صرف الدينار يتصدر أسعار صرف العملات العربية. قلت ظاهرة التسول حتى كادت تنعدم. تغير كل شيء، كنت أمشي في الموصل . فأرى المدينة تتنفس.

حل الصيف. وكان علينا أن نعيد ترتيب بيت ناريمان ونحصي مقتنياتها . في البدء عملنا أنا وخالتي على تجميع المقتنيات الثمينة والأوراق المهمة ، فظهر من بين ما ظهر سجل بغلاف جلدي سميك ، فتحته فاتضح أنه كتاب يوميات كتبته قبيل رحيلها . احتفظت به لأتصفحه فيما بعد . والكثير من الرسائل المتبادلة بين والديَّ الراحلين.

أما عن ذهب ناريمان ومجوهراتها فهنا كانت الصدمة. كانت كميتها تفوق مجوهرات زوجة النمرود. شعرت بالغثيان حين فتحنا صناديق مجوهراتها الواحد تلو الآخر ، فلو أنها ضحت بثمن عقد واحد من

عقودها الكثيرة، لكان غطى مصاريفي لخمس سنوات... تملكني الغضب.

حاولت خالتي وجدان تهدئتي قائلة :

_ اذكروا محاسن موتاكم، يا ابنتي، اطلبي لها الرحمة.

_ أطلب الرحمة لمن! قلت ساخطة بصوت غير مسموع

في ذلك الوقت ساعدني مازن وزوج خالتي على شراء سيارة نوع سوبر رويال موديل ١٩٨٥. وكنت قد بدأت بتلقي دروس في تعلم القيادة، اكتملت صورة الوريثة الغنية في نظر المجتمع، فمجتمع الذكورة سيغفر لحواء كونها أنثى ضعيفة إذا كانت وريثة غنية .

_المجد لآدم ثم المجد للمال. هكذا تطورت نظريتي بعد أن أكملت عقدي الثاني.

عدت إلى البيت محملة ببعض الرسائل والأوراق التي أثارت فضولي من بين ما وجدناه في غرفة ناريمان. وبعد العشاء أعددت دورقاً كبيراً من الشاي المعطر ، وجلست أتصفح ، فضضت الظرف الأول كان رسالة من أمي كتب على الغلاف" تسلم بيد الرائد نجيب صديق أحمد"، يبدو أنها كانت تبعث له برسائلها أثناء وجوده في القاعدة الجوية ... بتاريخ العاشر من آب.. ١٩٧٠، تبدأ رسالتها بتحيات ومشاعر و أشواق، ثم تخبره أنها كانت عند الطبيبة التي أكدت لها أنها حامل، ثم تقول:

سوف يأتي "محمد" قريباً، ثم تسترسل وتقول سيملأ الولدان البيت جلبة، وسيحطمان زهرياتنا الثمينة أثناء ركلهما للكرة، ثم ترسم أربعة قلوب... وسلام

ثم أفض الظرف الثاني

إنه مرسل من خالة وجدان، الكليشة ذاتها على الظرف

تسلم بيد الرائد.....

عزيزي نجيب، ناريمان في حالة خطرة وقد احتاجت إلى إجراء عملية، و ضعها الآن حرج وهي في حاجة إلى نقل دم، أرجو حضورك.

ملاحظة رزقك الله طفلة جميلة

التوقيع وجدان اليوم ١٤ شباط ١٩٧١

ترى ماذا كان رد فعل أبي حين علم أن محمد لم ولن يأتي وأن المولودة أنثى... هل فكر في وأدي مثلا؟

شعرت بأنني خائفة من الحصول على المزيد من الإجابات وكنت على وشك التوقف عن نبش دفاتر الماضي، لكن رغبتي في الاستمرار تغلبت في النهاية، أفض ظرفاً ثالثاً:

عزيزتي وجدان : آلمنى كثيراً خبر مرض ناريمان سأكون معكم قريباً، ولكنني سأرسل لكم من يتكفل بتسهيل مهامكم حتى تسنح لي فرصة للمجيء.

سعادتي بالمولودة لا توصف سأسميها مريم على اسم أمي رحمها الله.

تحياتي لناريمان

وقبلاتي لحبيبة بابا

التوقيع نجيب

اليوم ١٤ شباط ١٩٧١

أطوي الرسالة، بينما أغمغم ، حبيبة بابا!

أعود إلى الحاضر فأدرك أنني لم أسمع أي شيء عن عائلة أبي، لم أعرف إن كان لي عم أو عمة؛ جد أو جدة
سأسال خالتي عنهم فيما بعد هكذا قلت لنفسي.
ثم أفض الكثير من المغلفات، التي لا تحمل لي أي جديد سوى أشواق ناريمان وقبلاتها، وأخبار عن أحمد، اليوم مشى اليوم قال بابا، وأخيراً تعلم قيادة الدراجة... وأخيراً... وبجهد نفسي مضن أفتح مذكرات ناريمان

ناريمان صدقي

اسمي ناريمان ولدت في ديسمبر العام ١٩٤٧ لعائلة ميسورة الحال. لم يكن لي أخوة، كنا فقط فتاتين أنا وأختي الكبرى وجدان. كان أبي يملك أراضي شاسعة تزرع كل عام بالقمح والشعير. وأراضي واسعة تملؤها أشجار الجوز و الفاكهة من كل الأصناف.

كانت أمي تُجهض الذكور، بينما أكملنا نحن الفتيات مسيرة النمو في رحمها حتى موعد الميلاد .

كانت أمي تحمل كل عام، ثم تجهض ما إن يهل هلال حملها الخامس. دفن كل من أمي وأبي رفات أربعة أجنة ذكور.

وما زلت أتذكر يوم قصت علينا أمي قصة ولادة وجدان: بعد حمل صحي متكامل ، خرجت وجدان من رحم أمي أولاً، ثم خرج بعد ذلك كيسٌ يحوي جنيناً ذكراً، يبدو أنه كان ميتاً منذ شهور، كرهتْ أمي خلفة البنات، فحين كانت تحكي قصة التوأم الصبي الذي كان مع وجدان كنت أشعر أنها كانت تتمنى لو أنه عاش وماتت وجدان؛ ما الذي كان سينقص، فالعالم ليس في حاجة إلى مزيد من الإناث.

كبرت وأنا أسمع هذه القصة، وكلما زرت مع أمي مدافن العائلة، أرى قبور أخوتي الذين لم يبصروا النور، فيمتلأ فؤادي حسرة.

ثم توفى أبي بسكتة قلبية، وأنا ما أزال في الثامنة ،وهنا انقلبت حياتنا رأساً على عقب، كان الجميع يغمرنا أنا وأختي بعطفه وحنانه حتى انقضت أيام العزاء حين اجتمع كبار رجال العائلة وقرروا أن أملاك أبي ستؤول كلها إلى عمي الذي كان يصغر أبي بعام، فقد كانت

القوانين القبلية آنذاك لا تورث الإناث. كان علينا أن نعيش في كنف عمي لكي يتصدق علينا من مال أبينا ، أما أمي فقد خيروها إما أن تتركنا وتعود إلى بيت أبيها، وإما أن تكون لعمي زوجة ثانية ما إن تنتهي شهور العدة، وافقت أمي على عرض الزواج كارِهة، فتزوجت عمي في اليوم التالي لانقضاء العدة . ضمنت لنا هذه التضحية من جانب أمي أن نمكث في بيتنا، فعلى الأقل لن نتشرد .

كان عمي بخيلاً كريه الطباع يبغض أمي منذ كان أبي حياً، سقى أمي وسقانا أشد أنواع العذاب النفسي والجسدي. كان يضربنا ويضرب أمي لأتفه الأسباب، ويقتر علينا معيشتنا أما أولاده فقد كانوا يعاملوننا كما يُعامَل العبيد، ويمنون علينا أن أباهم يكفلنا ، وأننا لولاه لكنا الآن في دار الأيتام . أما زوجته فلا أحمل لها ذكرى سيئة.

وبعد شهور قليلة حملت أمي، وهنا بدأت شرارة الأمل تلمع في نهاية الطريق. وبعد تسعة شهور ولدت نوران. كنت في غرفة الجلوس أسمع بكاء الطفلة نوران بينما تصرخ جدتي لأمي ساخطة وهي تقول: _ڤطيعة بنات.

بعد ولادة نوران ،هجر عمي أمي تماماً . سواء في فراش الزوجية أم في مستوى الإنفاق ؛ بحجة أنها لا تنجب سوى البنات، عشنا بعدها أنا وأمي وأخواتي على ما تجنيه هي ووجدان من أعمال التطريز والحياكة .

كنت أكره وجدان من كل قلبي. لماذا لم تمت هي ويعيش أخي الذي كان معها. ما الذي كان سيختل في موازين الكون لو أن وجدان ماتت. كانت النساء ستنقص واحدة. ثم ماذا؟

كان أخي هو من سيرث أملاك أبي وأمواله، وما كنا وصلنا إلى مانحن فيه.

كان مقدر لي أن تشاركني وجدان في كل شيء. فحين كنا صغاراً كانت تشاركني لحافي وسريري، وحين تخبز أمي كانت تعطيني رغيفاً، ثم تقول تقاسميه مع أختك، حتى الثياب الجميلة كان علي أن ألبسها بعد أن تصغر على وجدان، وحين كبرت شاركتني في قلب من أحب.

هكذا كبرت وأنا أكره نفسي، وأكره وجدان، وكل أنثى من نسل حواء.

كانت شخصيتي تختلف كثيراً عن شخصية وجدان. فوجدان ساذجة تبتسم في وجه كل من يقابلها، وتحول كل المواضيع إلى سخرية سافرة، فكل النقاشات معها تنتهي إلى الضحك. وما زالتْ حتى الآن، أتذكر عمي الذي سقانا المر بالرحمات والبركات. أنثى غبية. ككل بنات جنسها الغبيات. كبرنا بسرعة شأننا في ذلك شأن كل بنات حواء. وحين أتممت دراستي الثانوية ظهر في حياتنا نجيب . شاب وسيم من عائلة معروفة غني ويدرس الطيران الحربي. أحسست أن أبواب الجنة فُتحت أمامي. كان يشبه قارب النجاة الذي سيقلّني إلى أحلامي. بعيداً عن ظلم عمي وأولاده. كان نجيب يتردد على أحد أبناء عمي الذي كان زميلاً له في كلية الطيران. شاب وسيم بعيون زرقاء بلون البحر، وشاربين عظيمين. انجذب في بادئ الأمر إلى وجدان، لكنه سرعان ما تركها وتقدم لخطبتي.

مضت الأيام والسنون وظلت وجدان ترفض كل خاطبيها متحججة بأنها لا تستطيع أن تترك نوران، فقد كانت هي من تعيل أمي ونوران في ذلك الحين بعد أن أقعد المرض أمي. ظلت وجدان في البيت

تمرِّض أمي المقعدة. وتعمل طوال الليل تخيط وتحيك وتطرز حتى تضمن لهم ثمن الدواء ولقمة العيش ومصاريف دراسة نوران. تخرجت نوران وتزوجت، وبهذا كان قطار العمر قد مضى وزهرة الشباب قد ذبلت. فقررت وجدان أن تكمل حياتها هكذا بتولاً بلا شريك. قرر عمي وهو على فراش الموت أن ترث عنه وجدان بيتاً خرباً، في المدينة العتيقة، في محاولة أخيرة منه لإسكات ضميره قبل أن يموت. ولد أحمد، بعد عام من زواجي كان فرحتي بقدومه كبيرة وبعد ولادته بعام، توفيت أمي، ورفض نجيب أن تسكن وجدان في بيت مستقل سواءً في بيت أهلي، أو في بيتها الذي ورثته عن عمي في المدينة. أصر على أن تنتقل للعيش معنا. وافقتُ كارهة. كانت وجدان رغم الانطباع الأبله المرتسم على وجهها ذكية جداً. وتعلم أنني لا أطيق وجودها، فكانت تجامل نجيب في البقاء ليوم أو يومين. ثم ترحل، لتمضي أسبوعاً في القرية مع أبناء عمي الذين كانوا يحبونها، ولا أدري كيف ولماذا؟ وأسبوع آخر عند نوران. فلم أكن أراها باستمرار.

كانت والدة نجيب سيدة جميلة جداً. بطول فارع وعيون زرقاء. وبشرة بلون الرخام. وشعر أحمر منسدل، كانت مجالس المدينة كلها تتحدث عن جمال مريم أوزبك. التي جلبها عمي صديق أحمد آغا والد نجيب عروساً له، من مدينة طشقند في بلاد ما وراء النهر. لم أحبها من لقائنا الأول، رغم كل محاولاتها في كسب ودي، كانت تغيظني حين تتبجح وتقول إنها حُرِمَت من إنجاب الفتيات، وإنها كانت تتمنى لو أنعم الله عليها بواحدة، كان وجودها قريباً مني يذكرني بكل معاناتي، امرأة مرفهة لا ينقصها من نعيم الدنيا سوى إنجاب فتاة، كلما أنظر

إليها أتذكر حين كانت أمي تغضب منا، فتنهال علينا بالإهانات والشتائم، و تتمنى لو أن البيت يقع على رؤوسنا فنموت نحن الثلاثة، فتأتي هذه الحسناء القادمة من صحراء سيبيريا لتحدثني عن شوقها لإنجاب فتاة. كنت كلما سردت علي قصة حرمانها من إنجاب البنات تلك أتذكر ما كانت ستقول جدتي لأمي لو أن قصة كهذه قُصَّت عليها:

"كَطيعة بنات"

كذا كانت مشاعري نحو مريم أوزبك، أو ماما مريم كما كنت أناديها في حضور نجيب.

وحين حملت بطفلي الثاني، ماتت ... حزن نجيب لرحيل أمه حزناً شديداً ،ونذر أنه لو كان ما في بطني بنتاً، فإنها ستكون مريم، لم يحرك العهد الذي قطعه نجيب على نفسه فيّ ساكناً، فقد كنت متيقنة تمام اليقين أن محمد قادم؛ فعائلة نجيب لا ينجبون سوى الذكور، ولم تولد لديهم أنثى منذ ثمانين عاماً، إذ كانت آخر أنثى ولدت في عائلتهم هي عمة نجيب المولودة في أواخر القرن التاسع عشر.

وافقت نجيب على اسم الفتاة لعلمي أن ذلك لن يحدث أبداً.

مريم

توقفت عن قراءة مذكرات ناريمان عند هذا الحد، فلم أعد أحتمل المزيد من السواد.

أسئلة كثيرة تحركت في عقلي، عليّ أن أبحث لها عن إجابات. هل لأبي عائلة وأين هم؟

وما قصة حب أبي لخالتي وجدان؟

بمقدار كراهيتي لناريمان، التي تضاعفت بعد قراءة مذكراتها، أشفقت عليها. نعم أشفقت عليها من نفسها، رغم أنها لا تستحق الشفقة. الظروف لا تخلق الوحوش، الوحوش يولدون وحوشاً. والدليل على ذلك خالتي وجدان التي عانت الكثير، ولكنها لا تكنّ كراهية لرجل أو امرأة. لم تمنحني مذكراتها أي عذر ألتمسه لها. منحتني فقط تسلسلاً زمنياً لتطور حقدها مع بعض المسوغات التي لا تبريء جانبها. فقد كانت تكرهني أولاً لأنني أنثى واسمي مريم على اسم جدتي، التي كانت تذكرها بكل نقائصها التي ابتدعها خيالها المريض، ثم إنني جئت لكسر قاعدة عمرها ثمانين عاماً، فكنت أنثى على عكس ما تمنت.

أغلقت دفتر اعترافاتها ورسائلها، وذهبت لأنام .

كنت على اتصال دائم بمازن. استعجله في إتمام شراء بيت شجرة الليمون . أخبرني أن المالك لا يملك عقد ملكية رسمياً. إنه فقط إقرار خطي من عمته التي وهبت البيت لأبيه قبل أكثر من أربعين سنة، وأضاف أن الموضوع سيأخذ بعض الوقت. خصوصاً أن عقود ملكية بعض العقارات في الحي القديم لا تزال تحمل ختم السلطنة العثمانية.

- لا بأس، لست في عجلة من أمري، بوسعي الانتظار، أريد منك أن تحصل على وعد من مالك البيت ألا يبيعه لأحد غيري.
- من سيشتري بيت قديم في ظل النهضة العمرانية التي يشهدها البلد.

كان هذا في أواخر تموز ١٩٩٠، كعادة الأيام الخوالي تمضي في عجل، أطل علينا آب، لم تكن شمسه حارقة كما هي الآن. ربما ارتفعت الحرارة بسبب الاحتباس الحراري، أو بسبب احتباس الظلم في قلوب المساكين.

وفي صباح الثاني من آب استيقظ العراقيون على بيان جديد وبداية عهد جديد. اجتاح الجيش العراقي دولة الكويت. أولئك الذين أحسنوا قراءة الموقف قالوا :

_إنها النهاية، السقوط الذي لن تتبعه نهضة.

أما الحالمون والشاعريون فقد كانوا ينتظرون زوال الغمة.

توتر و أخبار ، أعاد العراقيون تشغيل المذياع الذي علاه الغبار في السنتين الماضيتين؛ ليتابعوا آخر ما توصل إليه المجتمع الدولي و مجلس الأمن. وفي السادس من آب ١٩٩٠ صدر قرار مجلس الأمن الرقم ٦٦١ الذي نص على فرض العقوبات على شعب العراق، كانت عقوبات خانقة تقضي بمنع وصول الغذاء والدواء وكل متطلبات الحياة إلى الشعب العراقي. بهدف إجبار الحكومة على الانسحاب من الكويت؛ الغريب أن المجتمع الدولي كان يصف نظام البعث بأنه نظام ديكتاتوري، بينما كان هو ذاته يعاقب الشعب بمنع

وصول الدواء والغذاء لضحايا الدكتاتورية، قد أكون بعيدة عن السياسة لكنني أبحث عن المنطق، منذ متى كان الجلاد يُعاقب بتعذيب ضحاياه . وفي التاسع من آب أعلنت حكومة العراق ضم الكويت إلى حكومة العراق على اعتبارها المحافظة التاسعة عشر.

كانت الفترة بين السادس من آب والخامس عشر من كانون الثاني ؛ هي فترة انتظار هبوب العاصفة . كان على العراق أن يختار إما الحرب وإما الانسحاب ومن كان في وسعه الاختيار ؟ فالخيارات المطروحة للعامة كانت التملق أو الصمت!

للأسف، الكثيرون اختاروا التملق من دون التفكير في العواقب.

تغير كل شيء بين عشية وضحاها ، لون السماء ، ضوء الشمس ، كل شيء حولك كان يدعوك إلى الاختناق ، المؤن في البيوت آخذة في التناقص، و أسعار صرف الدينار مقابل الدولار آخذة في الانحدار.

أمضى العراقيون ذلك الخريف، متحلقين حول المذياع للاستماع إلى آخر الأخبار عبر أثير إذاعة BBC وإذاعة مونتي كارلو؛ لمعرفة ما سيؤول إليه الحال.

وفي ظل هذه الأحداث. عاد تشرين من جديد وعدنا إلى مقاعد الدراسة. كنت حينها قد وصلت إلى المرحلة الرابعة. انتهى عهد العلوم الأساسية، والآن سنبدأ بالعلوم السريرية. فلن نتعامل بعد اليوم مع جثة هامدة أو شريحة زجاجية تحت المجهر أو أنبوب اختبار، سنكون وجهاً لوجه مع أوجاع الآخرين.

دخلت الكلية هذه المرة بسيارتي بعد أن تمرنت جيداً على قيادتها وتدبر لي أحد الأصدقاء أمر الحصول على إذن رسمي بركن سيارتي الرويال في مرآب الكلية، إنها سلطة المال._المجد للمال_

علمت أن توزيع المجاميع قد تغير، لا أدري بأي آلية . وفي المحصلة لا مهرب من المواجهة هذه المرة .

نقل الكثير من الطلاب الوافدين من المحافظات البعيدة إلى جامعات أقرب إلى محل سكناهم تحسباً لوقوع الحرب. ومن بين الذين غادروا كانت آرين التي نقلت إلى جامعة شمالية.

توفيق من جديد ومحاولات التقارب التي كان يبذل فيها أقصى ما في وسعه.

صحبتني خالتي بعد ظهر ذلك اليوم إلى أحد الصاغة لشراء عقد وخاتم، وبعض الحلي. كانت خالتي ترى أنه من غير اللائق أن أمشي من دون حلية ذهبية، ولا أدري لماذا؟

وصلنا محل الصائغ. اخترت قلادة وخاتمين وساعة ذهبية، ثم أخرجت الحجر الذي أهداه إلي أيوب منذ أحد عشر عاماً من حقيبتي، أخذها وتفحصها ثم قال في شيء من الاستغراب

_ عقيق.. وكأنه يحاول أن يقول إنه رخيص .

طلبت منه أن يصنع لحجري إطاراً ذهبياً وسلسلة. ليكون قلادة أحملها أينما كنت.

حملتْ الأشهر الثلاثة التي سبقت اندلاع الحرب تغييرات كثيرة في علاقتي بأيوب. زال ذاك التوتر الذي كان ينتابني كلما مر *إلى*

جواري. كنت من دون أن أدري أنفذ ما طلبته خالتي ؛ أتصرف كمريم ١٩٨٠ بعفوية ومن دون تشنج .

لم تتعدَ علاقتي به أو بغيره حدود كوننا زملاء.

اجتمعنا من جديد في نادي الكلية لنشرب الشاي، كنت ارتدى القلادة لأول مرة ودار بنا الحديث عن الهدايا .

بدأ أيوب النقاش، قال إنه يؤمن أن الهدية لا تقدم إلا بسبب عاطفة ومودة. قال آخر إنه يحب الهدايا الثمينة . وأضاف ثالث قائلاً: إن الهدية تعكس مستوى من يقدمها .

فتجرأت وسألته ماهي أول هدية استلمتها ؟

_ حصالة نقود. قال مبتسماً وكأنه يعيد شريط الذكريات في مخيلته.

- أيها الرأسمالي، قال أحدهم ضاحكاً.

فعاودت السؤال بطريقة مختلفة لاختبار ذاكرته :

– وما هي أول هدية قدمتها أنت؟

فاحمر وجهه خجلاً بينما ضحك الحضور وصاح به صديقه

- اعترف هيا لا مجال إلى الإنكار.

ضحك أيوب ليداري حرجه: .

- كانتا هديتين؛ كتاباً وهدية رمزية لا أريد ذكرها.

تولى صديقه مهمة استجوابه نيابة عني:

- لمن... تكلم؟

- لإنسان عزيز، وخفض ناظريه، كمن نُكِئت جراحه.

عدت إلى البيت، تغمرني سعادة لا توصف يكفي أنه لا يزال يرى أنني إنسان عزيز.

أقبل الشتاء قبل موعده هذه المرة، الخوف من استخدام أسلحة محظورة في الحرب يملأ الأحاديث والاجتماعات العامة والخاصة، وفرق الدفاع المدني تدور على المدارس و دوائر الدولة لتعليم الناس كيفية التعامل مع قصف محتمل بأسلحة كيميائية. الموت صار حديث الجميع. لكنه هذه المرة لن يقف في الجبهة، بل سيدق الأبواب والشبابيك.

مع مطلع عام ١٩٩١ كانت معظم الشبابيك مغلفة، بورق بلاستيكي ، والكل يبحث عن مؤونة ووقود، انقطعنا عن الدوام، ولم تعد هناك قيمة لأي شيء.

وفي هذه الأثناء اتصل مازن ليخبرني أن البيع قد تم، وأن بيت شجرة الليمون صار لي، وأنه سيتسلم المفاتيح فور إخلاء البيت من بعض مقتنيات المالك القديم .

عاصفة الصحراء

مريم

وجاء اليوم الموعود، الخامس عشر من كانون الثاني. ١٩٩١ ،فكانت العيون كلها معلقة بالسماء تنتظر أن ينزل الموت، تُرى بأي صورة سيأتي ؟ وفي أي ساعة سيهبط ؟

مر يوم الخامس عشر وتلاه السادس عشر والترقب يسود الأجواء، ثم جاءت الليلة الموعودة ليلة السابع عشرة من كانون الثاني ١٩٩١ ، في الساعة الثانية بعد منتصف الليلة دقت الصافرة معلنة غارة جوية، تجمد الدم في عروقي لمجرد سماع صوتها، لم أكن أعرف أنني أخاف الموت إلى هذه الدرجة! مضت ساعة، وساعة أخرى ولا شيء لا أدري كيف غلبني النعاس، وفي الصباح علمت أن الليلة الماضية كانت ليلة قاسية على بغداد فقد شن طيران التحالف مئة طلعة جوية على سماء بغداد...

تحالفت أربع وثلاثون دولة، لتكون جيشاً قوامه خمس وسبعون ألف جندي، وألف وثمانمائة طائرة. ثلاثة آلاف وستمائة دبابة ومئة وخمسون قطعة بحرية؛ لتحرير الكويت من صدام، فكانت النتيجة تدميراً كاملاً لبلد كان للتو قد بدأ بالنهوض، جسور انهارت، مؤسسات دُمرت، لم تصلنا الكهرباء طيلة أربعين يوماً... لا وقود... لا تدفئة... لا غذاء... لا دواء... كل هذا والموت واقف عند الباب . تجمعت كل أنواع المخاوف: الخوف من الموت تحت نير قنابل الF16 أو ال B52، الخوف من طاغوت السلطة، الخوف مما هو قادم، لم نكن

أحياء قط ،كنا مثل العائدين من الموت لأداء أدوارنا في مسرحية سوداوية.

مضى النهار بارداً، مرتجفاً، وحين حل الليل عرفت الطائرات طريقها إلى مدينتنا. كانت ليلة عصيبة . شن فيها طيران التحالف غارات مستمرة على المنشآت العسكرية والخدمية في الموصل ، مركز الهاتف ،محطات الكهرباء ، محطات الوقود المؤسسات النفطية ،محطات المياه.

كان صوت صافرة الإنذار يخطف الدم من وجوه الأطفال، وهم يركضون خائفين مرتعدين إلى أحضان أمهاتهم ، وقد أنهكهم الجوع وسرق الخوف بريق ضحكاتهم، وينادي أحدهم على الآخر :

- تعال... جت الغارة

لم تعد السيارات تمشي في الشوارع ، فلا وجود للوقود. الجيش كله في البصرة والكويت ولا أخبار ترد عن الجنود . عزلة تامة . الصلة الوحيدة التي كانت تربطنا بالعالم هي المذياع.

اضطررنا أن نغادر الحي نحن وخالتي نوران وزوجها . فقد كنا على مقربة من مؤسسة للتصنيع العسكري.

في صباح الحادي عشر من شباط غادرنا إلى بيت ناريمان الذي أصبح بيتي الآن، كان يقع على الضفة المقابلة للحي القديم .ما إن وصلنا إلى البيت، حتى نزلت خالتاي إلى القبو لترتيبه وجعله صالحاً للعيش.

ارتقيت الدرج إلى الطابق الثاني ومنه إلى سطح المنزل أنظر بعيداً، فأرى الجسر الحديدي العتيق، ومن ورائه قليعات شامخة كالطود

مثقلة بالتاريخ. قليعات عريقة عراقة نينوى . قديمة قدِمَ دجلة التي بناها الأشوريون قبل الميلاد بألف عام لتكون حصناً وقلعة ..تمتد مع امتداد أسوار نينوى، وحين سقطت إمبراطورية آشور ٦١٢ قبل الميلاد التهمت النيران كل شيء وصمدت القليعات.

وسط زحام القباب الأثرية قلعة باشطابيا وبقايا سور المدينة العتيقة ؛قلعة قره سراي ؛ مقام يحيى بن القاسم بقبته المثلثة المضلعة... ودعائم المسجد المنحدرة نحو النهر وعلى جرف دجلة أرى بوادر ربيع مبكر، أتساءل:

-أ ربيع في زمن الحرب؟ ثم أجيب:

الربيع كالصغار يزهر في كل الأزمان.

سلبت الحرب بريق أرواحنا، فلم نعد نريد أي شيء، ولا يغوينا أي شيء، صرنا لا نريد؛ فقط لا نريد... صار همنا الأوحد أن تبقى هذه الروح داخل الجسد فقد أُلغيت كل الأمنيات.

هبطت سلالم السطح متثاقلة، بينما يقترب صوت طائرة تحوم في الجو، فصاحت خالتي:

_ مريم ، انزلي ماما، السطح خطر.

وقبل أن أطأ أرضية الطابق الثاني دوّت صافرة الإنذار، وخلال ثوان معدودات اهتزت الأرض من تحت قدمي، وتحطم زجاج النوافذ، دفعتني قوة ما ربما عصف الصاروخ. فسقطت أرضاً، وانكببت على وجهي؛ ما أشبه اليوم بالبارحة، هنا وقعت منذ سنوات طويلة، هنا في لحظة تشبه هذه لم تكن حياتي تساوي شيئاً كما هي الآن، ما أسهل أن نموت! لا شيء هنا أسهل من الموت على هذه الأرض .

ركضت من دون وعي إلى غرفة ناريمان ألوذ بها ، وصوت ارتطام القنابل بالأرض يصم الآذان، انتهت الغارة، واختفى زئير محرك ال F16 ،فساد الصمت مجدداً.

ها أنا ألوذ بحضنك، يا أمي، رغم كل ما كان، أحمل خوفي وجزعي إليك، تبقى أحضان الأمهات أوطاننا، وحين يرحلن نلوذ بقبورهن، و نعانق بقايا عطر ما زالت تعلق في منديل. وندفن مخاوفنا خلف وسادة، ما زالت تحمل ذكرى عرقهن و دموعهن.

نظرت في المرآة لأرى جرحاً في جبيني والدم يغطي نصف وجهي، لا بد أن شظايا الزجاج أصابت جبهتي.

وصلت أخيراً إلى خالتيّ اللتين أرعبهما منظر الدم على وجهي الدم.

- لا شيء. قلت.

ضمدت نوران الجرح، ثم استلقيت على أقرب أريكة وكل شيء فيّ يبكي، عدا عينيّ، حتى وصل إلى مسامعي صوت قطرات المطر، وهنا انهمرت مدامعي بينما أردد أبيات من أنشودة المطر للسياب.....

أ تعلمينَ أيَّ حزنٍ يبعثُ المطر

وكيفَ تنشجُ المزاريبُ إذا انهمر

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع

بلا انتهاء .. كالدم المراق ، كالجياع

كالحب ، كالأطفال ، كالموتى _هو المطر !

ومقلتاك بي تطيفانِ مع المطرْ

أصيح يا خليج يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى !

فيرجعُ الصدى
كأنّهُ النشيج ...
يا خليج يا واهب المحار والردى
.....

مع حلول المساء كان الملجأ جاهزاً لاستقبالنا،آويت إلى ركن قصي، اتكأت على الحائط أتابع تراقص ضوء الفانوس...

غارة تبدأ و أخرى تنتهي، وأتساءل في نفسي كم نفس أُزهقت هذا اليوم! هل مات الصغار وثكلت الأمهات أم ماتت الأمهات وتيتم الصغار؟ لا جديد سوى الخسائر، المزيد من الخراب، دمار البنيان والإنسان.

في تلك الليلة أغارت طائرتان أمريكيتان نوع f117على ملجأ العامرية أو الملجأ ٢٥ في العامرية في بغداد كانا صاروخين صمما خصيصاً لغرض اختراق الملجأ.. تم توجيههما بالليزر الأول أدى إلى إقفال أبواب المكان ومخارجه ، والثاني اخترق السقف ليحرق الأجساد المرتجفة ويزهق الأرواح الخائفة. كانت حصيلة الغارة الأمريكية إزهاق أربعمائة روح بريئة معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، هؤلاء الأربعمائة هم من تم انتشال جثامينهم

والكثير ممن لم يكونوا محظوظين كفاية ليكون لهم جثامين يتم انتشالها ودفنها، فقد تفحموا ودفنوا تحت أطنان من الحجارة والحديد المنصهر. عذبني خيالي في تلك الأيام، فكنت كلما خلوت بنفسي أتخيل سقف الملجأ ،وهو يسقط فوق رؤوس الأبرياء، وسط صرخات الاستغاثة وبكاء الأطفال. لزم المجتمع الدولي الصمت حيال هذه

المجزرة البشعة. بينما أعلنت دولة عربية واحدة فقط الحداد على أرواح شهداء العامرية. لا أدري هل كانت هذه هي خطة تحرير دولة الكويت من الاحتلال الصدامي!

وفي ٢٨ فبراير انسحبت القوات العراقية من الكويت. وانتهت الحرب، ولسان حال الجميع يقول لماذا خضنا الحرب إذا كنتَ ستنسحب. علام أُهدرت كل هذه الدماء ؟ علام الجوع ؟ علام الخوف ؟

أيوب

ها هي طبول الحرب تقرع من جديد، ورؤوس الحراب تلمع على سفوح الجبال. ومرة أخرى ردد الشارع والتلفاز والراديو : احنا مشينا للحرب . يبدو أن هذه الأهزوجة سترافقنا لفترة أطول مما كنا نتوقع. حتى يظل الوطن سالماً! حتى لا تحترق الطفولة واللعب يوماً بلهب عدواننا! أشعر برغبة في البكاء حين أسمع هذه الكلمات، منذ ذلك اليوم احترقت الطفولة واحترق اللعب، والمشهد لا يزال مستمراً حتى اليوم .

بعد الاجتياح الصدامي للكويت، عاد الخوف إلى القلوب، وعادت معه أشياء أخرى ، دم، خوف ، جوع ،حزن.

هكذا، ومن هذا المزيج العجيب تتكون ذكرياتنا، دم وخوف يليه حزن ثم خوف وجوع... ثم جوع وأمان... يليه الموت جوعاً، ونتيجة لندرة الدواء، ثم الموت خوفاً، ثم لحظات قصيرة من أمان نسبي. ثم موت وجوع وخوف وحزن .. الكل معاً .

هذه هي دورة حياة كل فرد عراقي ... وهكذا تتبلور هويتنا
حتى يظل الوطن سالماً لأجيالنا... حزن .

بعدما فشلت كل المساعي الدولية لاجتناب الحرب. أدركنا أنه لا مفر ، فهذه الأرض لم تشبع بعد، فقد كل شيء رونقه وبريقه، تركنا كل المشاريع جانباً وصارت عبارة الحرب على الأبواب مطبوعة على جباه المارة و تتردد على كل الألسنة، وأُضيف إلى قاموس الفرد العراقي مفردات جديدة مثل حصة تموينية... ضربة كيمياوية محتملة... ملجأ... و أنقاض...

عدنا إلى مقاعد الدراسة، كان الضباب يلف كل شيء. لماذا ندرس؟ إذا كنا سنموت ، إنها فقط مسألة وقت ، أهملت دروسي، وصرت أمضي معظم وقتي في نادي الكلية أشرب الشاي من دون سكر طبعاً، فالحصار الاقتصادي قائم، اعتدت تدخين لفافات التبغ... شاي ... تبغ...شعر هكذا صارت أيامي، ولتذهب دراسة الطب إلى الجحيم.

تكررت جلسات النادي مع الأصدقاء تنضم إلينا بعض الطالبات أحياناً.

أنجذب إلى مريم، يشدني البريق في عينيها، صلابة نظراتها، وأسئلتها المحيرة، وقدرتها على تحويل المواقف إلى فكاهة .

فحين قال لها توفيق:

- أيوب شاعر
- يشعر بماذا؟ وضحكنا
- يكتب شعراً

ثم تطول نظرتها، وكأنها تنظر إلى شيء بعيد لا يبصره أحدٌ سواها... وتبقى الكلمات معلقة من دون رد، ثم تعلو وجهها مسحة حزن، و تستأذن في الانصراف. كل اللقاءات التي جمعتنا كانت تنتهي بتلك النظرة البعيدة، ثم وجوم لا يُعرف مصدره ثم انصراف مفاجئ، لتتجاهلني بعدها لأيام طويلة، وكأنها غاضبة مني، ثم لا شيء.

قرر أبي بيع البيت القديم بعد رحيل جدتي. عارضت فكرة البيع بشدة. أردت أن يبقى بيت شجرة الليمون، لكن من دون جدوى، كان أبي يقول:

- ليت الذكريات تموت حين يموت أصحابها.

أراد أبي لبيت شجرة الليمون أن يرحل مع كل ما يحمله من ذكريات. تعطلت إجراءات البيع؛ لأن البيت لا يزال باسم عمة جدي، بينما نحمل عقد هبة موقع باسمها وبصمة إبهامها– رحمها الله– طال الأمر وقُبيل اندلاع الحرب تم البيع كان علينا أن نخلي البيت لنسلمه إلى مالكه الجديد لكن الحرب بدأت وأوقفت كل الخطط.

ومع كل ما تحمله الحرب من لوعات الروح قررت ذات مساء الذهاب إلى الحي القديم لإحضار حاجياتي الباقية هناك. كانت رغبة مجنونة تملكتني في لحظات، والرغبات المجنونة دائماً تخبئ وراءها أشياء مجنونة مثلها، أخبرت أمي عن عزمي على الذهاب . فعارضت قائلة :

- أخشى أن يُضرب الجسر وتعلق.
- أعبر بالبلم (زورق). قلت في عناد .

خرجت من بيتنا بعد صلاة العصر فقد صرت مصلياً ملتزماً منذ رحيل جدتي لا أدري أ هو الموت يحذرنا ؟ فنلوذ من خوفنا بالله، أم أنني افتقدت تراتيل جدتي؛ فقررت أن أرتلها بنفسي.

المهم.. كان عليَّ أن أذهب على دراجة هوائية فلا سيارات تمشي في الشارع، استغرقني الطريق ساعة إلا ربع من شارع المجموعة الثقافية إلى الحي القديم، حين فتحت الباب كانت الشمس توشك على الغروب، واستقبلتني عتمة القنطرة، ثم الفناء، شجرة الليمون العجوز . التي لا تزال تنشر الرائحة العطرة ذاتها.

"الظلام سيخيم بعد قليل عليّ أن أتعجل " أقول في نفسي

وأنا أفتح باب السراب، شراشف مغطاة بالغبار هذا كل ما أراه ، أرفع الملاءة الأولى عن مكتب أبي،فتسقط من على الطاولة ورقة مطوية أفتحها فأقرأ :

"منحازٌ أنا إلى الفقراء.. إلى ذلك الحد الذي جعلني أتعامل مع الأغنياء على أنهم مذنبون" ... تشي جيفارا .

أقلب أوراق أبي القديمة، أين ذهبت أفكاره الاشتراكية يا ترى؟

أفتح أول درج، مجموعة كتب،

تجوال _ هيرمان هيسه.

هكذا تكلم زردشت _ فريدريك نيتشة .

بحثاً عن الشمس _جلال الدين الرومي . كان الأخير ديواناً شعرياً باللغة الفارسية لايزال قيد الترجمة.

الشمس تبتعد. وعتمة السرداب تزداد، أغطي طاولة أبي وأتجه إلى دولابي المزجج. أمد يدي لأفتحه. أحد مقابضه مفقود. أتذكر زهرة البلور التي أعطيتها لمريم.

هل أحببت مريم؟ أتساءل من دون شغف لمعرفة الجواب.

أتناول مجموعة من كتبي :

عدوي اللدود، لجين وبستر، إنه توأم الكتاب الذي أهديته لمريم يومها أحضرت هذا لي، وأهديتها صاحب الظل الطويل

كتاب آخر، لروبنسون كروزو

دفتر قديم بأوراق مصفرة... كلمات بخط يد صغيرة

أنت عمري... حيرت قلبي معاك

أضحك من كل قلبي حين أتذكر يوم قررت مريم أن تكتب كلمات أغاني أم كلثوم كلها في دفتر، استغرقها الأمر الصيف بأكمله، يبدو أنني نسيتُ إرجاع الدفتر إليها.

أقلب في الدفتر.. تقع عيني على كلمات أغنية :

حيرت قلبي معاك وأنا بداري واخبي قل لي اعمل ايه وياك..... وعزة نفسي منعاني...

تلمس الكلمات قلبي فأتنهد... ثم في ثوانٍ أخرج من مزاج العاطفة الذي أدخلتني فيه كلمات أحمد رامي وأغلق الدفتر لتقع عيني على ما هو مكتوب على غلافه :

مريم نجيب صديق الصف الثالث

ماذا !! مريم هي ذاتها مريم .

ومن هي مريم محمد أحمد التي كنت أبحث عنها منذ سنين؟ أشعر بندم وضياع . أحس كمن فقد شيئاً ثميناً. مريم كانت أمامي طيلة هذه السنين وأنا أبحث عن مريم أخرى وهمية . تسقط من أحد الكتب صورة للصف الرابع؛ صورة جماعية أذهب بناظري مباشرة إلى حيث تقف مريم. إنها مريم ذاتها؛ مريم الفتاة الصلبة التي لا تنظر جانباً أبداً، التي تنهي كل الحوارات بضحكة يشوبها ألم وذكريات قادمة من بعيد .

أمست العتمة تلف السرداب كله، جلست أرضاً أتساءل: هل سنعيش؟ هل ستمهلني الحياة لألتقي بها من جديد وأخبرها أنني أيوب، صديق طفولتها، أم أننا سنموت، وستدفن ذكرياتنا معنا كما يقول أبي؟ لا شيء أسهل من الموت على هذه الأرض .

انتابني شيء من الخوف، وهاجمتني الخواطر والهواجس، وفجأة انطلق صوت صافرة الإنذار، وقبل أن تكمل دوّيها، سمعت صفيراً عجيباً ثم صوتاً آخر مختلفاً عن سابقه يكاد يصم أذني، إنه صوت ارتطام ثم انهيار ، ثم صراخ... أطفال نسوة يستنجدون. عويل صراخهم يشق عنان السماء ثم صفير آخر... فينهار كل ما حولي؛ الحجارة الأبواب الشبابيك، كلها تتوجه نحوي، وكأن بيت شجرة الليمون يريد أن يمنحني العناق الأخير.

أمي... أبي... يوسف... زينب ... ثم طيف جدتي تقف بعيداً، تهز رأسها بالنفي، تنظر إليّ مطولاً، ثم تومئ لي مودعة ، وتختفي، فيدهمني نعاس عجيب، و أنام

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ يس: ٨٠ - ٨٣

إنني لا أزال في مكاني في السرداب، لكن أين أريكتي وطاولة أبي و كرسيه، أنظر حولي الدواليب هي ذاتها لكن لا أثر لكتبي... من أعاد المقبض الذي أخذته مريم إلى مكانه؟ سجاد يغطي الأرضية وسائد هنا وهناك... من أصلح تآكل الجدران؟

ألمح حذاء خشبياً عند باب السلم .

لماذا يبدو السرداب أكبر، في الركن القصي هناك دلو مربوط بحبل، أمشي نحوه، الدلو ممتلئ... أغترف منه لأشرب وأغسل وجهي؛ أنظر إلى الأسفل، إنه بئر... أشعر بدوار ... أعود أدراجي، أقف تحت الشباك أسترق النظر إلى الفناء .. رجل يجلس في ظل شجرة ليمون صغيرة طولها لا يتجاوز المتر يرتدي ثوباً أبيض.. يغطي رأسه بعصبة خضراء يتدلى طرفها على كتفه الأيمن ... يتحلق حوله رجال يضربون على دفوف . أعرف هذا الوجه هذه الملامح أُميّزُ ذاك التيه الساكن عميقاً في العينين... الوجه البدري ... إنه يوسف ... ولكن متى شابت ذوائبه... ومتى خرج من طور الصمت يضع يمناه على أذنه وينشد أبياتاً_ لابن الخياط _بصوت شجي :

كل القلوب إلى الحبيب تميل ومــعي بهذا شاهدٌ ودليلُ

أما الدليلُ إذا ذكـــرتَ محمداً فترى دموع الـعارفينَ تسيلُ

يا سيدَ الكونينِ يا علمَ الهدى هذا المتيمُ في حمـاكَ نزيلُ

هذا رسولُ الله هذا المصطفى هذا لــربِ العالمين رسولُ
هذا الذي ردَّ العيونَ بـــكفهِ لما بدت فوق الخدودِ تسيلُ
هذا الغمامةُ ظللتهُ إذا مشى كانت تقيلُ إذا الحبيب يقيلُ
صلى عليك الله يا علم الهدى ما حنَّ مشتاقٌ وســارَ دليل

.....

تتملكني العبرات فأبكي حتى يهتز كياني، يكاد نشيجي يكتم أنفاسي، ثم فجأة أفتح عينيّ على ضوء شديد فلا أقوى على النظر، فأعود وأغمضهما من جديد، ثم أعاود المحاولة . ما هذا أين أنا؟ لا أستطيع الرؤية، الوجوه حولي تختلط . أين أنا ؟ أرى وجهاً مدوراً بأنف مفلطح لا أستطيع أن أميزه؛ يناديني صاحب الوجه :

- أيوب، أيوب، اصحَ يا صديقي الحمد لله على السلامة.

أعرف هذا الصوت جيداً، لكنه لم يتكئ هذه المرة على الواو، أجاهد لأفتح عينيّ، إنه أمجد صديق طفولتي الأول! تتهادى من عيني دمعة.

- أين أنا؟ أسأل والدموع تخنقني.
- في المستشفى، أخرجناك من تحت الأنقاض، كنت شبه ميت ، لكن عفريت السرداب أنقذك على ما يبدو.

يقول أمجد باسماً.

حكى لي أمجد فيما بعد كيف سقط صاروخان على بيت قريب، وبينما كانوا ينتشلون الأحياء والأموات من تحت الركام نادى عليهم رجل عجوز رث الثياب .

- هناك شاب عالق في الداخل تحت الحجارة و الأنقاض

مشيراً إلى موقع بيتنا القديم.

استمر الرجال في رفع الحجارة لساعة كاملة حتى وجدوني وحين وصلوا إلي، اكتشفوا أن ثمة مساحة آمنة بيني وبين الحجارة وكأن جسماً يحميني.

ربما كان أمجد يبالغ في روايته فهو يحب القصص الخيالية ،غير أنني أحببت قصة الملاك الحارس الذي عانقني حين انهارت علي حجارة السرداب، ثم منحني إغفاءة ريثما يحضر المسعفون. أفلتت حجارة كبيرة من ملاكي الحارس الذي كان مشغولاً بحماية قلبي كيلا يحطمه الركام. سقطت هذه الحجارة على فخذي فكسرته.

حملني أبناء الحي القديم إلى المستشفى، وتبرعوا لي بدمائهم، نسوا أمر جراحهم التي لا تزال تنزف؛ نسوا الخوف الذي أرهقهم والجوع الذي أنهكهم .

"منحازٌ أنا إلى الفقراء" ..

مريم بعد الحرب

توقف إطلاق النار أخيراً، مكثنا في بيت أمي، فالقبو هنا كان دافئاً فلا نحتاج إلى وقود وتدفئة في ظل أزمة المحروقات.

مع انتهاء الحرب غطت سماء المدينة عباءة من دخان حملتها الريح من آبار النفط المحروقة، فاستحالت سماء العراق بأسره رمادية تسودها عتمة كتلك التي ظللت القلوب آنذاك، ثم ومع بواكير آذار جادت

علينا السماء بالغمام، فهطل المطر مدراراً، بكت السماء لثلاثة أيام متواصلة حتى اغتسلت الشمس وأشرق الأفق من جديد .

عدنا إلى بيت خالتي منتصف آذار، وخلال ساعات من وصولنا، طرق الباب. ففتحت خالتي وإذا به مازن.

- مرحباً ست وجدان، كيف حالكم؟ الحمد لله على سلامتكم ، كنت قلقاً عليكم... لماذا تأخرتم في العودة إلى البيت؟
- أهلاً، أهلاً، مازن، سلمك الله، لا شيء مهم فقط كنا متعبين .
- نعم والله تعب.

كنت أسمعهم من المطبخ، وفور جلوسه سأل مازن :

_ أين مريم ؟

دخلت إلى غرفة الضيوف، بعد أن نادتني خالتي . كم تمنيت لو أنها اعتذرت عني بأي عذر! فلم يكن لدي أي طاقة للثرثرة.

كان مازن قد كسب وزناً خلال أيام الحرب على عكس الجميع، وما إن دخلت حتى لاحظ أثر الجرح على جبيني،

فقال مشيراً إلى جبينه :

- سلامات .
- الله يسلمك، شيء بسيط .

_ عندي لك أخبار روعة.

رفعت حاجبيّ، أخبار روعة !

ومن دون أن أسأل، استرسل مازن قائلاً :

- بيت المارد صار أرضاً.. تراباً . يقولها وهو يمط الألف في تراب.
- كيف؟ سألته بتثاقل.

_صاروخ . رد بحماس وكأنه يتحدث عن صاروخ ورقي.

- يا ستار... صاروخ طيارة؟ ... أتساءل واجفة .
- صاروخ هدمه بكل بساطة، نحن الآن لسنا في حاجة إلى رخصة إزالة من البلدية ولا مصاريف عمال الهدم، انظري إنها صفقة رابحة.
- صفقة في صاروخ، يا مازن، سامحك الله !قالت خالتي.

_ هل لحق الأذى بأحد؟

_ جرحى وقتلى شيء طبيعي.

_سود الله وجهك. أقول في نفسي.

كنت على وشك أن أنفجر في وجهه؛ هذا البدين عديم الإحساس، قتلى وجرحى بينما ينظر هو إلى رخصة الإزالة وأجور العمال.

أكمل بكل برود:

- ابن المالك السابق كان في البيت لحظة وقوع الصاروخ، أظنك تعرفينه، يا مريم، طالب معكم في كلية الطب.

شعرت بأنفاسي تتلاحق، وجسدي ينهار، غثيان و إعياء شديد. إنني أغالب الإغماء.

- وهل هو في خير الآن؟ سألته خالتي في إشفاق.
- في المستشفى بين الحياة والموت.

استمر الحوار بين خالتي ومازن، بينما توقف عقلي عن استيعاب أي شيء مما يقولون، انصرف مازن بعدها فعادت خالتي إلي :

_ مريم، ماذا جرى لك؟ هل تعرفين ابن صاحب البيت؟ من هو؟

لم أجبها، ولكنني في صباح اليوم التالي غيرت ثيابي، وحملت حقيبتي وهممت بالخروج .

_ إلى أين؟ تسأل خالتي.

_إلى المستشفى. عندي مريض يجب أن أراه.

_ انتظري لحظة آتية معك لن تخرجي وحدك في ظرف كهذا .

بدلت ثيابها على عجل والتفت بعباءة الرأس، ومشينا.

كان الشارع خالياً تماماً من أي سيارة حتى صرنا نستشعر شيئاً من الحرية أثناء مسيرنا في وسط الطريق الذي من المفترض أن يكون غير آمن للمشاة في وجود السيارات. أسابيع على انتهاء الحرب، وحمى الخوف لا تزال تسكن الأجساد والقلوب، ولا شيء يلوح في الأفق سوى أرتال الكادحين... الأب مع ابنه يدفعان عربة يدوية بأربع عجلات نحو الغابات . ولدان في العاشرة يدفعان عربة كتلك التي تستخدم في أعمال البناء نحو الجانب الغربي عائدين من الغابات ، وهكذا كراديس تغدو فارغة وأخرى تعود محملة بأغصان الأشجار وجذوعها...أشجار الغابات.. غابات الموصل... صارت موقعاً للاحتطاب. ذكريات العاشقين التي حفرت على الجذوع انتهت كرماد تحت قدر حساء، وربما في تنور بينما تُخبز أرغفة الشعير ولكن ما حيلة الجياع؟

تقطع خالتي سلسلة أفكاري قائلة:

- أصابني مازن هذا بالغثيان يوم أمس، تصوري قصف وقتلى وجرحى وهمهُ المال والمشاريع، أعوذ بالله.
- أنا مثلك، يا خالتي، لو لم أكن متعبة لكنت ركلته خارج البيت.

_ لم تخبريني بُنيتي من صاحب البيت الذي أصيب ابنه؟

غاص قلبي في صدري، وضاق نفسي ، وأنا أقول :

_العم حيدر صاحب البيت، وابنه أيوب.

_ يُمة! شهقت خالتي، ثم غلف الصمت ما تبقى من طريقنا.

عبرنا الجسر الخامس، ونزلنا من المنحدر إلى المكان حيث كان بيت خالتي القديم قائماً يوماً ما، لم يكن المقام يحتمل أي إهدار للمشاعر في البكاء على الأطلال، فهناك إنسان يقبع على الخط الفاصل بين عالمين على بعد دقائق. توجهنا شمالاً. وكل خطوة تقربني من المستشفى كان صدري يضيق أكثر وأكثر . عذبتني الخواطر والهواجس. أحسست أنني كنت أمشي نحو المجهول فمن أنا. وإلى أين أمضي . هل ستمهله الحياة هل سيعطيه القدر فرصة. مسكين أيوب. لا أريده أن يبادلني الحب، ولا أريد أن يتذكرني. لينساني إلى الأبد ولكن ليعش، لينجُ وأخيراً غلبتني دموعي، انتبهت خالتي، ولكنها لم تجد ما تقوله.

دخلنا المستشفى سألت الموظف عن جرحى غارة منطقة الشيخ فتحي:

- ردهة الكسور للنساء والأطفال .
- لا، لا، كان هناك طالب طب مصاب، اسمه أيوب حيدر أين أجده ؟

- موجود في الردهة المقابلة.

انزاحت معظم مخاوفي، وتنفست بعمق حين قال: موجود، مشينا أنا وخالتي، تقدمتها ببضع خطوات كوني أعرف المكان.

دخلت الردهة، وعيناي تبحثان عنه، ها هو هناك أميز العم حيدر جالساً على كرسي عند رأس سرير، ساق طويلة معلقة، وسوائل وريدية.

نهض العم حيدر لتحية الزائرتين، كان لا يزال يحتفظ بشبابه رغم بعض خيوط الفضة المتناثرة هنا وهناك في شعره ومنابت لحيته. الوجه الصبوح ذاته، و بشاشة الطلعة هذا هو العم حيدر.

- مرحباً، كيف حاله الآن؟
- الحمد لله أحسن.
- هل استقرت حالته ، هل زال الخطر؟
- الحمد لله، زال الخطر، ويحتاج إلى نقاهة ، لقد فقد الكثير من الدم.

ثم استرسل العم حيدر في سرد قصة ذهاب أيوب إلى البيت العتيق ذلك المساء، وكيف كانت فكرة مجنونة . ثم يقول :

- خرج من تحت يد الموت بأعجوبة.

ودعتُ العم حيدر و هممتُ بالمغادرة، كان العم حيدر يحاول أن يقول لي شيئاً حين بدأ أيوب بالتململ في سريره . كان وجهه شاحباً. وعيناه غائرتين، وشفاهه متيبسة، فتح عينيه نظر إلى أبيه أولاً ثم إليّ، كانت عيناه متعبتين، ولمعت على ثغره ابتسامة:

- مريم... كيف حالك ؟ تكلم بتثاقل... كيف عرفت؟

- أنا بخير. عرفت، المهم أنك بخير؟ غالبتني عبراتي ، فاستعجلت الانصراف.
- لحظة إلى أين؟
- لا أريد أن أجهدك؛ أتيت فقط لأطمئن عليك .
- يجب أن نتحدث. ابقي أرجوك.
- لاحقاً، يا أيوب، كل المطلوب منك الآن هو أن تتعافى، أن تكون أقوى من الإصابة وبعدها نتحدث.

تمنيت لو أنني أملك أي صفة في حياته، جارة... صديقة... أي شيء يمنحني الحق في المكوث قربه، في البقاء معه مراقبة جراحه تخفيف أوجاعه، ولكن لا شيء. لم أكن أملك أي صفة، حين غادرت المستشفى أحسست بالخوف خفت أن يسرقه الموت في غيابي. أردت أن أبقى هناك لأحرسه، أردت له أن يعيش. غادرنا نحو الشمال. مشينا في الشارع حيث مدرستي الثانوية تقابلها كلية الطب ثم المستشفى العام ثم الجسر ثم الغابات.

كان الخوف يلفني والهواجس تملأ عقلي.

لم تنطق خالتي بأي كلمة منذ غادرنا المستشفى حتى وصلنا.

وقبل أن نفتح الباب إذا بصوت مازن :

- أين كنتم؟
- في مشوار. أجبت من دون اهتمام.

دخلنا جميعاً إلى غرفة الضيوف.. ثم التفتّ إليه قائلة

- بعد إذنكم أنني متعبة، وأحتاج إلى بعض الراحة.

وغادرت إلى غرفتي، لم يُطلْ المكوث، انصرف بعد ذلك بخمس دقائق.

دخلت خالتي إلى غرفتي، وقالت:

- انصرف.

_ أحسن... أرجوك، يا خالتي، لا تناديني إذا جاء مرة أخرى، أريد له أن يصرف نظر عن موضوع الخطبة؛ قررت أن أمنح أحلامي فرصة. ومازن ليس ما أحلم به.

- خيراً تفعلين، حبيبتي.

نمت بعدها، وحين أفقت كنت في حال أحسن،

وبعد العشاء، سهرنا أنا وخالتي نتحدث كما لم نفعل منذ زمن.

- خالتي حدثيني عن أهلي عن عائلة أبي.
- أوه... مريم أوزبك.. . صدّيق آغا... الأولاد نجيب، حميد وأكرم، كانوا يترددون على بيت عمي، وهناك تعرفنا إليهم، حميد طبيب وأكرم يحمل دكتوراه في الفلسفة. هربوا من العراق بعد عام ١٩٧٩، بسبب انتمائهم إلى تنظيم معادٍ للسلطة، ثم انقطعت أخبارهم بعد أن أخذتك وهربت بك.
- حدثيني عن جمال جدتي مريم.
- من أخبرك عنها.
- مذكرات ناريمان.

جحظت عينا خالتي...

- ماذا كتبت أختي سامحها الله؟

- لا عليك، أريد أن أسمع روايتك؟ لماذا لا أشبهها، في اعتقادك ، بيضاء بشعر أحمر منسدل وعيون زرقاء، قلت ضاحكة.

– حين رآكِ نجيب رحمه الله للمرة الأولى. كان عمرك أسبوع. قال إنك نسخة من وجدان . أنت تشبهينني. أنت حصتي منذ خُلقت .

– حبيبتي يا خالتي، قلت بينما أعانقها، ثم استدركتُ:

– تعالي، كيف شاركت ناريمان في قلب نجيب؟ هيا اعترفي.

– هل تعقلين أن أشارك أختي في قلب زوجها، استغفر الله العظيم، سامحك الله ناريمان.

وجدان

لا أحب نبش الماضي، ولا الذكريات، فكلها مؤلمة الجميلة والبشعة على حدٍ سواء. لا أدري أين وكيف ومتى تعلمت أن أطوي صفحة كل يوم ما إن تأفل شمسه، وهكذا عشت بذاكرة قصيرة على ما يبدو.

كنت الأكبر بين أخواتي، وحين مات أبي وتنصل عمي من تربيتنا، اكتفيت بتعليم متوسط واضطررت إلى العمل خياطةً وحائكة لإعالة عائلتي.

كانت أمي تشبه ناريمان، تبحث دوماً، عن عدو افتراضي تعلق عليه ويلاتها. بكت أمي حين مات أبي، وعلى أخي التوأم الذي مات في بطنها قبل شهور من موعد ولادته منذ عشر سنوات، بكته في ذلك اليوم أكثر مما بكت أبي الراحل نفسه، ولسان حالها يردد:

" ماذا لو عاش وماتت وجدان، ولمَ لا نعيش معاً نحن الاثنين" ؟
ثم ماذا كان سيفعل ابن العاشرة أمام جبروت رجال وسادة وأكابر؟ لم يكن ليفعل شيئاً أكثر مما فعلت أنا.
لم أُطل الوقوف أمام ولولات أمي وأختي فالوضع لم يكن يحتمل، فقد كان علي أن أبذل كل ما في وسعي لأعتاد الوضع الجديد.
ويوم ظهر نجيب في حياتنا، كان يحمل كل مواصفات فارس الأحلام، فبينما كان الراديو، يردد صوت الفنانة تمام إبراهيم تغني محبوبي الغالي طيار، كل ليلة ينزل بمطار، كان نجيب بقامته الفارعة، وبزته العسكرية وعينيه الزرقاوين وعائلته العريقة. فارساً للأحلام. ولكن أية أحلام؟ فهناك من لا يملك رفاهية أن يحلم، كان من الصعب علي أن أترك أمي ونوران وناريمان وأمضي مع الفارس المنتظر. فرفضت الزواج منه. وكتبت ردي مباشرة على ظهر رسالته التي كانت قد وصلت إليّ بيد فاعل خير، ليعود بها فاعل الخير ذاته إليه، طلبت منه ببساطة أن يمضي في طريقه وألّا يربط نفسه بي.
وبعد عام تكفلت زوجة عمي بأمر تدبير زواجه من ناريمان، لم يحتج منها الأمر الكثير لقد استخدمت مهارتها العالية في التسويق والترويج، ونجح الأمر وتزوج نجيب ناريمان. انتهى الأمر إلى هنا بالنسبة إليّ، لكنه لم ينته لدى ناريمان فهي لا تطيق العيش من دون أعداء ولو اضطرت إلى اختلاقهم. كرهتني أكثر بعد ارتباطها بنجيب، وكرهتني أكثر يوم أنجبت مريم، لسوء حظ مريم أنها ورثت ملامحي. كانت الطفلة من دون إرادتها تذكّر أمها بكل الأعداء الافتراضيين الذين مروا في حياتها :

حواء... وجدان.... مريم أوزبك .

أيوب

الثالث من آيار ١٩٩١

لا أدري كم مضى من الوقت حتى تمكنت من السير بمساعدة عكاز... كانت السيارات وقتها قد عادت تمشي في الطرقات.

طويت دفتر أغاني أم كلثوم ودسسته في جيبي، وتحركت في السيارة التي يقودها أبي. وحينما وصلنا، نزلت وناولني أبي عكازي.

_عند الواحدة ظهراً. قلت له:

دخلت إلى الكلية وجلست على مقربة من المدخل الرئيس . لأُشرف على الشارد والوارد.

كنت قد أمضيت ساعة ونصف الساعة جالساً على تلك الدكة الاسمنتية تحت شجرة الكالبتوس إلى جانبي عكازي حين دخلت سيارتها إلى الكلية.

تقدمت مريم نحوي، فهممت بالتقاط عكازي، لكنها أسرعت نحوي تلتقط العكاز، وتساعدني على الوقوف:

- أيوب، سعيدة أن أراك، كيف حالك؟
- بخير ما دمت قد وجدتك.

أظهرت عدم الفهم، وقالت:

- حسناً نلتقي بعد المحاضرة، ومضت مسرعة.

_مريم.. مريم ... أنادي.. تلتفت... تقف مكانها.. اتبعها بعكازي..

_ هل تظنين أنني لا أستطيع الجري وراءك... أقول باسماً بينما أشير إلى العكاز.

- مريم ، يجب أن نتكلم .

وصلت بعد جهد جهيد مني، فلا تزال إصابتي تؤلمني. جلسنا في زاوية في نادي الكلية.

وتنفست بعمق، ثم أخرجت الدفتر الذي أعطاه لي أمجد في آخر أيامي في المستشفى. قال إنه وجده في يدي يوم الحادث.

أضع الدفتر أمامها على الطاولة، أخذت تقلب صفحاته وتبتسم، قالت:

- أين وجدته؟

- هو وجدني في الحقيقة.

فتحت حقيبتها، وأخرجت علبة تشبه تلك المستخدمة في حفظ المصوغات، فتحت العلبة، كان في داخلها زهرة بلورية.

إنه الرابع من ديسمبر ١٩٩٣، أقف في ممر بارد. إضاءة رديئة الموجودات من حولي مصعد معطل وسلالم رخامية متسخة، رجال ونسوة والكل في حالة انتظار، وأمامي لافتةٌ كُتِب عليها " ردهة الخدج وحديثي الولادة" ، وإلى يساري باب زجاجي كبير تعلوه يافطة :

"صالة العمليات"

قطع تفكيري صراخ طفل. وبعد دقائق طويلة :

_ أيوب، نادتني منال من باب ردهة الخدج، أسرع.

المكان دافئ جداً، صغيران في صندوق زجاجي.

فتاة بشرتها وردية، وخدودها ممتلئة، تركل الصبي المحاذي لها في الحاضنة ذاتها بساقيها الطويلتين بينما صراخها يملأ المكان، و تأسر قلبي من النظرة الأولى.

الزمان الأول من نيسان ١٩٩٤

المكان حدائق كلية الطب جامعة الموصل

زينب تحمل بنتاً صغيرة في عمر بضعة أشهر بشعر أحمر غجري، وعينين زرقاوين وشفاه ممتلئة. إنها فاطمة(فطومة) تقترب منها مريم التي ترتدي رداء التخرج، وتأخذ الصغيرة نصطف في عناق جماعي، أمي أبي يوسف زينب وعائلتي الصغيرة مريم وفاطمة ومن ثم أنا أيوب .

ها هي الصورة تكتمل من جديد

المحتويات

أيوب ١٣
طيف في الفناء ١٧
أمجد ١٩
الأب الغائب ٢٥
يوسف ٣٥
ليلة العفو العام ٣٧
أنثى الدبوس ٣٩
يوسف أيها الصديق ٤٤
صديقة جديدة ٤٩
عدوى الحصبة ٥١
يوسف ٥٥
شارع الفاروق ٥٩
حرب السنوات الثماني ٦٢
رجل المطر ٦٨
نوبات الصراخ ٧٥
قطيعة وخلافات ٨٣
نزهات يوسف ٨٥
يوسف ضائع ٨٧
هدية لمريم ٩٢
مريم ٩٧
المجد لآدم ١١٢
فتاة كبيرة ١١٩
شمس ١٤٧
أيوب ١٥٩

مريم ١٦٤
ناريمان صدقي ١٧٣
مريم ١٧٧
عاصفة الصحراء ١٨٣
مريم ١٨٣
أيوب ١٨٨
مريم بعد الحرب ١٩٦
وجدان ٢٠٤
أيوب ٢٠٦

تمت بحمد الله.

إن أبطال الـــرواية يستنهضون في أرواحنـــا ..
أولئك الأبطال التراجيديين اليونانيين الذين يواجهون تحدي الآلهة، وما قدّرته عليهم ببسالة. قلبهم يقظ لا ينكسر أمام سطوة القدر، وبهذا فهم شهود عيان على بشاعة الحروب التي سعت إلى تقويض حياتهم. إنهم يعيشون في جحيم خاص، ولكن وردة الأمل تظل يانعة في نفوسهم.

حقاً إننا أمام رواية طهور فيها عفة، وتاريخ روحي للموصل والعراق في لحظات من أشد لحظات التاريخ جنوناً، وحقاً إن التعبير عن مشاعر الحب والحرية والانتماء إلى الوطن وأناسه البسطاء يتم من دون استدرار العواطف الفجة، فهو يستعين بصدق وغنى التجربة مستنداً إلى شاعرية تومئ ولا تفصح، توحي ولا تعلن وإلى لغة مكثفة دقيقة.

أ.د. نجمان ياسين
الرئيس الأسبق للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

6806919957978
#إقرأ....
dar alabdaa
da_ alabdaa
2013
07708361926
07710651968